جورج فرشخ

سليمان فرنجية

شهادات وذكريات

١٣ حزيران ١٩٧٨ ـ ٢٣ تموز ١٩٩٢



بيسان

جورج فرشخ

سليمان فرنجية

شهادات وذكريات

١٣ حزيران ١٩٧٨ ـ ٢٣ تموز ١٩٩٢



* عنوان الكتاب: **سليمان فرنجية، شهادات وذكريات**
* المؤلف: **جورج فرشخ**
* الطبعة الأولى: **تموز ٢٠٠٢**

* التنضيد الألكتروني: **مطبعة القارح - زغـرتا**
هاتف:٠٦/٦٦١٧٨٦ - فاكس: ٠٦/٦٦٥١١٥
بريد الالكتروني: impKAREH@cyberia.net.lb

* الناشر: **بيســان للنــشر والتوزيــع والاعــلام**
ص. ب: ٥٢٦١ - ١٣ بـيروت - لبـــنـــان
هاتف: ٣٥١٢٩١ - فاكس: ٩٦١ ١ ٧٤٧٠٨٩
بـــريد الكتـــــــروني: bisanbok@lynx.net.lb

الى والديّ
سعيدة وسركيس فرشخ

فهرس

حياته في سطور

- ولد سليمان فرنجية في ٤ حزيران ١٩١٠ في زغرتا
- تابع دراسته في مدرسة عينطورة
- ترك المدرسة باكراً وانصرف لرعاية الشؤون العائلية والسياسية.
- خاض المعارك الانتخابية كلها لحساب أخيه حميد فرنجية، وتدخل شخصياً لدى عبد الحميد كرامي، في انتخابات ١٩٤٣، ليقنع الزعيم الطرابلسي بأخذ أخيه حميد على لائحته.
- ١٦ حزيران ١٩٥٧، مجزرة مزيارة، واضطراره اللجوء الى سوريا بسبب الاتجاه الى القاء مسؤوليتها عليه، حتى قبل انتهاء التحقيق.
- عاد الى زغرتا بعد انتهاء ولاية كميل شمعون وتسلم الرئيس فؤاد شهاب السلطة. واثبت التحقيق القضائي براءته من أي مسؤولية في مجزرة مزيارة.
- انتخب نائباً للمرة الأولى عام ١٩٦٠، خلفاً لأخيه حميد الذي أقعده المرض عن متابعة نشاطه السياسي، وأعيد انتخابه في دورتي ١٩٦٤ و١٩٦٨.
- أول آب ١٩٦٠، وزير للمرة الأولى في حكومة صائب سلام، وسيتولى حقائب البريد والبرق والهاتف والاقتصاد والداخلية، عام ١٩٦٨، حين أشرف على الانتخابات النيابية.
- انتخب رئيساً للجمهورية في ١٧ آب ١٩٧٠، بفارق صوت واحد، هو "صوت الشعب"، وأقسم اليمين وتسلم السلطة في ٢٣ أيلول ١٩٧٠.
- شكّل الرئيس صائب سلام حكومة العهد الأولى التي اشتهرت بحكومة الشباب.
- نيسان – أيار ١٩٧٣، على أثر اغتيال القياديين الفلسطينيين الثلاثة يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر، قدم الرئيس سلام استقالته، وتوتر الوضع

ووقعت اشتباكات بين الجيش اللبناني والفدائيين.

– تشرين ١٩٧٣: عند اندلاع حرب تشرين، قدم تسهيلات لوجستية كثيرة لسوريا التي كانت تخوض الحرب الى جانب مصر، فقامت بينه وبين الرئيس السوري حافظ الأسد علاقة مميزة.

– ١٥ تشرين الثاني ١٩٧٤، حمل الملف الفلسطيني الى الأمم المتحدة، بتكليف من مؤتمر القمة العربية في الرباط، وتكلم باسم العرب جميعاً.

– ١٣ نيسان ١٩٧٥، حادثة عين الرمانة كانت الشرارة التي فجرت الحرب الأهلية.

– ٢٣ أيار ١٩٧٥، كلّف العميد المتقاعد نور الدين الرفاعي بتأليف أول حكومة عسكرية في تاريخ لبنان، لكنها لم تمثل أمام مجلس النواب، بسبب معارضة المؤتمر الاسلامي لها.

– ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٦، وقع ٦٦ نائباً عريضة تطالب باستقالته لكنه رفض الاستقالة وأصر على انهاء ولايته.

– ١٤ شباط ١٩٧٦، أعلن الوثيقة الدستورية بعد الاتفاق عليها مع الرئيس رشيد كرامي ومع الرئيس حافظ الأسد في دمشق.

– ١١ آذار ١٩٧٦، قام العميد الركن عزيز الأحدب بانقلاب تلفزيوني أكثر منه عسكرياً.

– ١٥ آذار ١٩٧٦، غادر قصر بعبدا بعد أن تعرض للقصف على يد جيش لبنان العربي.

– حزيران ١٩٧٦، طلب من الرئيس حافظ الأسد إرسال قوات سورية الى لبنان لوقف القتال، وذلك بعد الحاح من أعضاء الجبهة اللبنانية وبعد زيارات قام بها الى دمشق الرئيس كميل شمعون والشيخ بيار الجميل ونجلاه أمين وبشير الجميل والآباتي شربل قسيس.

– ٢٣ أيلول ١٩٧٦، غادر السلطة وسلّم الامانة الى خلفه الياس سركيس

وانضم فوراً الى الجبهة اللبنانية.

– ١٣ حزيران ١٩٧٨، هاجمت مجموعة من القوات اللبنانية اهدن واغتالت ابنه طوني وزوجته فيرا وابنتهما جيهان وثمانية وعشرين زغرتاوياً.

– جريمة اهدن دفعته الى تعزيز تحالفه مع رشيد كرامي ووليد جنبلاط والى دعم قوات الردع السورية واتهام الكتائب بالتعامل مع اسرائيل.

– حزيران ١٩٨٢، منذ بدء الاجتياح الاسرائيلي وضع امكاناته بتصرف الدولة وأعلن ان الشمال سيقاوم اذا عبرت القوات الاسرائيلية جسر المدفون.

– ٢٣ آب ١٩٨٢، فور انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية في ظل الدبابات الاسرائيلية، أعلن أنه يقطع الحوار ولن يتعاون معه على الاطلاق، ولم يعرب عن أسفه عند اغتيال بشير الجميل، كما لم يعلن مقاطعة أمين الجميل حين انتخب رئيساً خلفاً لأخيه بشير.

– ١٧ أيار ١٩٨٣، وقف بعنف ضد اتفاق ١٧ أيار، وساهم بقوة بالغائه.

– ٢٣ تموز ١٩٨٣، أسّس جبهة الخلاص الوطني مع رشيد كرامي ووليد جنبلاط ونبيه بري وأحزاب سياسية أخرى.

– ٣١ تشرين الأول ١٩٨٣ و١٢ آذار ١٩٨٤، شارك في مؤتمري الحوار الوطني اللذين عُقدا تباعاً في جنيف ولوزان دون التوصل الى نتيجة مجدية.

– ٣٠ نيسان ١٩٨٤، رفض الاشتراك في حكومة "الاتحاد الوطني" عبر ممثله (صهره) عبدالله الراسي (ارثوذكسي) محتجاً على حصر تمثيل الموارنة بشخصي كميل شمعون وبيار الجميل.

– صاحب شعار "وطني دائماً على حق" ١٩٦٩. من مسلماته: عروبة لبنان – العداء المطلق لاسرائيل.

– رؤساء الحكومة في عهده: صائب سلام، أمين الحافظ، تقي الدين الصلح، رشيد الصلح، نور الدين الرفاعي، رشيد كرامي.

شهادة وليست سيرة

هذه شهادة وليست بحثاً ولا سيرة. السيرة والبحث تلزمهما أدوات ووثائق ومراجع ليست متوفرة لديّ. طبيعة الشهادة أنها شخصية، فيها ذكريات وخواطر ووقائع عن علاقة كانت دائماً مصانة بالحب والاحترام والأمانة، حتى في أوقات التوتر. كانت لي ساعات شعرت وأشعرني فيها أني من أقرب الناس إليه. لا أذكر ولا لحظة أنه أشعرني بشيء من اللامبالاة أو الشكّ. على كل حال، احترام الآخر، أيّا كان، ميزة جوهريّة من مزاياه الكثيرة. كان يشعرني بعدم رضاه عن تصرّف أو موقف أو كتابة...

لكل إنسان أو باحث أو كاتب سيرة أن يرسم حياة سليمان فرنجية كما يشاء. برأيي، أنها ثلاث في حياة واحدة. وكل واحدة غنية بذاتها وتنتهي بانقطاع مفاجئ عن الثانية كأنها تُبتر بتراً بضربة سيف حاد. مع ما يرافق البتر من تمزّق ونزف وخوف، والانتقال من حال إلى حال، دون استعداد ولا تبصّر. وتبدأ وكأنها ولادة جديدة في الآلام والأوجاع والقلق من مواجهة مجهول لا يعرف أحد ماذا يخبئ.

وهذه الشهادة هي جملة مشاهد، حضرتُ بعضها وتحقّقت

من البعض الآخر لدى أصحاب العلاقة مباشرة. وسأُقصِر هذه المشاهد على حياته الأخيرة، مع اختراقات سريعة للمراحل الماضية، عندما يساعد ذلك على فهم حدث أو تفسير موقف.

وقد حرصت على عدم ذكر مشاهد ومواقف ليس عليها شهود أحياء. مثلاً، حمّلني الرئيس فرنجية رسالة سياسية الى العميد ريمون اده في باريس، قبل حلول المهلة الدستورية لانتخاب رئيس للجمهورية في عام ١٩٨٨. وقد بلّغت. وأحتفظ بالرسالة وبالجواب الشفهيين، على أمل أن يأتي زمان تتوفر فيه امكانية تأكيدهما بوثائق أو شهود آخرين.

يمكننا أن نتصوّر أنه كان يتوقع ويتمنى أن تكون حياته الأخيرة أهدأ مرحلة، فكانت أقساها. وفي الشدائد يُمتحن الرجال. وكان الامتحان عسيراً. وتعرّض لمثله زملاء له. للتاريخ أن يقول إذا نجحوا في الامتحان كما نجح.

الحياة الأولى تبدأ بولادته في إهدن في ٤ حزيران ١٩١٠ وتمتدّ إلى مرض أخيه حميد فرنجية، في تشرين الأول ١٩٥٧.

الحياة الثانية تذهب من مرض حميد فرنجية إلى اغتيال نجله طوني فرنجية في ١٣ حزيران ١٩٧٨.

الحياة الثالثة من اغتيال طوني فرنجية إلى وفاته في ٢٣ تموز ١٩٩٢.

الحياة الثالثة هي الأقصر بعدد السنين، والأعنف والأشدّ لؤماً عليه، والأنفع لبني قومه، بدءاً بعائلته وزغرتا وصولاً إلى الشمال ولبنان والعرب. وكلّ ما عدا ذلك تفاصيل في حياة الرئيس سليمان فرنجية. النيابة والوزارة، مقارنة بمرض أخيه حميد فرنجية كانت تفاصيل. وكانت رئاسة الجمهورية مجداً زائلاً أمام جريمة اغتيال ابنه طوني فرنجية.

كان يعيش في وهم أن لبنان الخالد ثابت الأساس وأن حرب السنتين ليست سوى أزمة قوية لكنها عارضة. بعد اغتيال طوني، زلزلت به الأرض واهتزّت إيماناته الراسخة كلها. خاف على أولاده وأهل بيته. خاف على زغرتا. خاف على اللبنانيين. وخاف على لبنان. وزاد من خوفه أنه لمس لمس الدّم أن قوّته وقدراته للدفاع عنهم معروفة.

زمن المحنة

إهدن - بيت طوني بيك - ١٣ حزيران ١٩٧٨: فدى لبنان!

نبدأ من البداية. من اليوم الأول من حـياته الثالثة والأخيرة، يوم اغتيال طوني فرنجية.

هذا المشهد لم أحضره، رواه لي شهود عيان وشـخصيات شاركت في صنعه، وأجريتُ تحقيقاً ميدانياً، وأعتقد أنني اقتربـت أكثر ما يمكن من الحقيقة والواقع.

قال لي الدكتور يوسف الرهبان، طبيب الرئيس فرنجية إنهم اتصلوا به من القصر في زغرتا ليحـضر ويرافق الرئيس، الذي وصل لتوّه من النقّاش بطائرة هليكوبتر عسكرية. بطبيعة الحال، لم يتردّد الدكتور الرهبان. كانت حقيبـة الطوارئ جاهزة، حـملها ومشى. وكأنهم كانوا بانتظاره. ما إن وقف بالباب حـتى وقـف الرئيس فرنجية فوقفوا جميعا.

كان خبر الاعتداء على إهدن ومقـتل طوني بـيك وزوجته وابنته قد انتشر فازدحمت الطريق المؤدية الى القـصر في زغرتا وباحاته وقاعاته بالناس. حاول الأب سمعان الدويهي ورينه بـيك إقناعه بالعدول عن فكرة الصعود إلى إهدن. لم يردّ على أحـد. لم يلتفت إلى أحـد. لم يسـمع كلام أحـد. شـفترَ[1] ومشـى. ولما

١ - شفتر: سمكت شفته السفلى وتدلّت. وهي حالة كانت تصيب الرئيس فرنجية في حالتي الغضب أو الحزن الشديدين.

جلس إلى جانب السائق فؤاد الحلو صعد الأب سمعان الدويهي واحتل الزاوية اليمنى وتبعه الدكتور الرهبان وحشرهما من الزاوية اليسرى رينه بيك معوض. وانطلقت السيارة وانطلقت من الصدور المحقونة آهات وصلوات ودعاءات ومسبّات.

صمتٌ في السيارة وفي الخارج. كانت الساعة قاربت العاشرة ومع ذلك، لا يذكر الدكتور الرهبان ولم يتذكّر الأب سمعان الدويهي ولا رينه بيك معوض أنهم سمعوا شيئاً. لا محرك السيارة المجتهدة في الصعود ولا ضجيج السيارات النازلة ولا زمامير سيارات إسعاف، ولا أصوات الطبيعة المستيقظة في بدايات الصيف. كان ضجيجهم الداخلي يطغى على كل ما عداه.

تطوّعت سيارة لم يطلب أحد من سائقها شيئاً وانطلقت بسرعة الريح لتسبق سيارة الرئيس وتفتح له الطريق وتنبئ بوصوله إلى إهدن.

قال أنطوان يمين الذي صعد إلى إهدن سيراً على الأقدام فور انتشار خبر الاعتداء، إن الرجال اصطفوا على جانبي الطريق الفرعية المؤدية إلى باب بيت الرئيس، بشكل تلقائي ودون أن يقول أحد لأحد شيئاً، كي يحولوا دون أن تتوجه سيارة الرئيس إلى باب بيت طوني بيك. وبالفعل، توقفت السيارة أمام باب بيت الرئيس.

وترجّل الرئيس. لا هو حيّا، ولا هم رحّبوا. مع أنه التفت إليهم وألقى نظرة دائرية وعرفهم واحداً واحداً.

سار الرئيس، عن يمينه الأب سمعان الدويهي وعن يساره رينه بيك معوض وخلفه الدكتور يوسف الرهبان بحقيبة الطوارئ. بين بيت الرئيس وبيت نجله طوني مسافة بالأمتار. قطعها الموكب بدقيقة. قال لي الدكتور الرهبان: "فجأة، رفع الرئيس يده اليمنى نحو السماء وقال: فدى لبنان! وبعد خطوات معدودة، رفع الرئيس مجدداً يده اليمنى نحو السماء وقال: فدى لبنان! وبعد خطوات معدودة رفع الرئيس فرنجية مجدداً يده اليمنى وقال: فدى... ولم يُكَفِّ. ظهرت علينا الجثث".

في ذلك الصمت المدوّي، رنّ الهتاف كأنه نشاز. كأنه يمزّق أغشية آذانهم وحجب أفئدتهم. سمع معظمهم لكن أحداً لم يفهم. على رأسنا، لبنان، لكن ماذا جاء يفعل هنا؟ في المرة الثانية سمعوا وفهموا واقتربوا. إنه يعني ما يقول، إذن؟ في المرة الناقصة، جَمَدُوا... أعادتهم الجثث إلى واقعهم، إلى حقيقة الجريمة. لو ربّع أو خمّس أو سدّس كانوا هتفوا معه؟ لبنان، لاحقون عليه! الآن، نحن أمام هذه الجثث الثلاث، بانتظار أن تكتمل اللوحة بالعثور على الجثث الباقيات...

أنطوان يمين لم يسمع هتاف الرئيس. كان بالقرب من باب

بيت طوني بيك. أبصر الأب سمعان الدويهي يسرع ويسدّ الباب بقامته العالية وكتفيه العريضين، محاولاً منع الرئيس فرنجية من الدخول. فانضمّ إليه رينه بيك معوض في المحاولة ذاتها. إلاّ أن الرئيس أصرّ وأصرّ الأب سمعان بدوره. وارتفع صوتاهما. وأخيراً، دخل الرئيس ودخل خلفه الأب سمعان ورينه بيك والدكتور الرهبان. ومكثوا طويلاً.

قال الدكتور الرهبان: "كانت الجثث الثلاث مغطاة بشراشف بيضاء. تقدّم الرئيس دون تردّد من جثة طوني. وقال لأحدهم: "إرفع الشرشف". ورفع الشرشف. هزّ الرئيس رأسه، وقال: "جيبولي كرسي". وحضرت الكرسي طائرة فوق الرؤوس قبل أن ينهي عبارته، وجلس.

لم يضطر الدكتور الرهبان لأن يتدخل وراح يتأمل ويفكر ويسجّل كل حركة. وشاهد أحدهم ينحني على الرئيس ويهمس في أذنه همساً. وسمع الرئيس يقول بصوت عال، متعمداً أن يسمعه الحاضرون جميعاً: "لا تخافوا! لا تخافوا! ولا يأتِ أحد منكم بحركة، ولا يذهب أحد إلى أي مكان. كل شيء يصير بوقته".

" لا تخافوا. لا تضطرب قلوبكم ولا تفزع. تشجعوا. لا تخافوا."[٢]

٢-يوحنا ١٥

أعتقد أن تلك اللحظة كانت لحظة حاسمة في حياة الرئيس. واعتقد أنها كانت حاسمة أيضاً في حياة عدد كبير من الناس. في تلك اللحظة، مات ناس وعاش ناس وهجر ناس وتقررت مصائر.

وفي تلك اللحظة، تجلّت أمام الرئيس فرنجية الحرب بكل كارثيتها ومأساويتها وعبثيتها. في إهدن، في بيت ابنه، في المعقل المحمي، شاهد وشمّ وسمع وشعر بمجامع حواسه وعقله وعواطفه غلطة الحرب وأضرارها وفواجعها. إذا كانت تضربه بأعز ما لديه، هو الرئيس القوي والمحروس والقادر، فماذا تفعل بالإنسان المسكين الذي لا غطاء له ولا طاقة لديه ولا دولة تحميه؟

أعتقد انه بهتافه: فدى لبنان! أعطى لاستشهادهم بعداً وطنياً دون أن يتخلى مطلقاً عن حقه الشخصي، وحدّد لنفسه أهدافاً. لقد تحققتُ من هتافه ذلك لدى الشخصين اللذين كانا يرافقانه. وأضاف رينه بيك معوض، أنه كان يشعر أن الموقف السياسي الجديد يتكوّن عند الرئيس فرنجية وهو يعيش تلك اللحظات، التي هي أصعب لحظات في حياته.

أعتقد أن رينه بيك كان على حق. كان الحزن والغضب والألم والرغبة بالانتقام وكل مشاعر العنف تتفاعل وتجيش وتتحرك في صدر الرئيس، لكنه لم يتركها تتغلب عليه. ظل

ضابطاً أعصابه مالكاً رشده، مسيطراً على انفعالاته. حـــتى عندما كان يبدو منهاراً ويجهش بالبكاء، ظلّ سيد نفسه. في تلك اللحظات أدرك بعقله وحواسه أن لبنان على حدّ السيف. وأن كل لبـــناني في خطر وكل زغرتاوي مهدّد وكل فرد من أفراد عائلته مســـتهدف. وأن عليه أن يحميهم ويدافع عن لبنان. أعتقد أنه في تلك اللحظات كرّس نفسه ورهن حياته للبنان واللبـــنانيين، من دون أن يغيب عن باله أن قدراته معروفة. هل يريد برهاناً أبلغ وأقوى من عجزه عن حماية ابنه وعائلته في بيته وفي إهدن؟ فكيف يحمي لبنان؟ ونقـــل القضية من قصة شخصية بينه وبين القاتل (بالمفرد وبالجمع) إلى قصة وطنية بين القاتل وبـــين الوطن، ونصّب نفســـه مدافعاً عن لبنان، دون أن يتنازل عن حقه الشخصي.

كان الرئيس فرنجية، مثله مثل معظم السياسيين في لبـــنان، يعمل لنفسه وعائلته، ولزغرتا وللبنان. في إهدن قـــلب الأولويات وقرّر أن يعمل للبنان واللبنانيين أولاً. لقد حفظ الأمثولة واستخلص العبرة. سمعته أكثر من مرة يقول إن مستقبـــله صار وراءه، وإنه حقق كل ما يمكن أن يطمح إليه إنسان عاقل.

وكان يقولها صادقاً، فيما يختص به شـــخصياً. لكنه لم يتخلّ عن طموحه من اجل لبنان. من اجل الحفاظ على لبـــنان. وإذا كان هذا الهدف يستدعي الطموح مجدداً فلن يتخلّف. أعرف أنه لم يكن

متحمساً جداً لترشّحه مرة ثانية للرئاسة.

وفي إهدن، حدّد هدفاً آخر لحياته: الانتقام. سيعيش للبـــنان. وللإنتقام. ولأن الانتقام يدخل في صلب خدمة لبنان واللبنانيين. به يساهم في عملية تنظيف أحوج ما يكون إليها لبنان.

لم ينتهوا من اكتشـــاف الجثث الا عند الظهر، ونقـــلوها إلى زغرتا وطرابلس لتنظيفها وهندمتها. وحـــين أبـــلغوا الرئيس أنهم ثمانية وعشرون، ما عدا طوني بـــيك وعائلته، استـــهول الرقـــم. وأصرّ على معرفة أسمائهم، والذين لم يعرفهم شخصياً، اســـتفهم عن هويات أهلهم.

واكتشفت مؤخراً ان شـــهداء اهدن عددهم واحـــد وثلاثون وليس ثلاثة وثلاثين، كما ذكرت وســـائل الاعلام، وكما شـــاع في زغرتا، ورسخ في أذهان الجميع. وكما ذكرت في "خيط رفيع من الدم". ولم أفهم سبب الخطأ وشيوعه.

أما الشهداء فهم: طوني بيك فرنجية وزوجته فيرا وابـــنتهما جيهان. وسمير طنوس أبشي وقبلان أبشـــي والأخوان ســـركيس ويوسف بدوي اسكندر وشهيد رومانوس اسكندر والســـيدة فدوى بركات، وحليم الجعيتاني ومحسن وابنه منير دحـــدح، وموســـى

الرعيدي، ووجيه موسى عزيزي، وانطوان بولس سميعين فرنجية والأخوان انطوان وسـايد جرجس ابــراهيم فرنجية، وانطوان جرجس البدوي سليم فرنجية، وأنطوان سـمعان انطون فرنجية، وبـدوي وابـنه انطوان سـمعان فرنجية، وتريز وزوجها غالب وابنهما جو غالب فرنجية، ونبـيل حـليم غالب فرنجية، وأنطوان يوسف برزق فنيانوس، وخليل حبيب بـك كرم، وجوزف مخايل المقسيسي، وجوزف منصور، وبدوي شهاب ناصيف، والرقـيب طنوس بولس يمين (أبو واكيم).

قبل المجزرة وبعدها

كانوا أقوياء بالسياسة والاقتصاد، بالدبلوماسية والعلاقـات الخارجية، بالثقافة والخيال الخلّاق، بالتعايش، بالتجارة، بالحوار، بالانفتاح. وكانوا ضعفاء بالعدد وبالسلاح وبالقـتال. وتخلّوا عن استخدام وسـائل القـوة التي لديهم والتي يعترف لهم بـها العرب والعالم ولجأوا إلى أسباب الضعف لحـل مشـاكلهم. كم يجب أن يكونوا أذكياء! كم برهنوا عن فطنة وحنكة وحكمة ودهاء!

قبل مجزرة إهدن، كان الموقف المسيحي موحّداً، بقـدر ما يمكن أن تتوحّد أحـزاب وتيارات وميليشـيات وزعامات تضمّ الشيء ونقيضه، وتسعى جميعاً إلى هدف واحد: الحكم والاستئثار بمغانمه وإضعاف الأحزاب الأخرى. وكان الزعماء الكبار داخل جبهة سياسية واحـدة، باسـتثناء العميد ريمون اده، الذي عارض الجبهة اللبنانية منذ قيامها، لأنه أدرك أنها جبـهة طائفية وليسـت جبهة لبنانية، وأنها جبهة مصالح متناقضة ومتنافرة.
بطبيعة الحـال، كانت تنشـب بـين الأقـطاب ومعاونيهم خلافات، وكانت تصل أحياناً إلى حدّ سقوط قتلى وجرحـى. لكن، كان يبقى دائماً مكان للصلح. بعد إهدن، لم يتركوا محلاً للصلح...

قبل اغتيال طوني فرنجية وعائلته والآخرين، كانت العلاقة بين حزب الكتائب والرئيس فرنجية علاقة تحالف وتنافس سياسي. وكان التنافس يشتدّ أو تتراجع حدّته وفقاً للظروف ولتقلب ميزان القوى في هذه المنطقة أو تلك، وتبعاً للمواقف والأساليب. كان الرئيس فرنجية، مثلاً، يعارض فرض "الخوات" "وضريبة الدم" و"التشبيح". كما كان يرفض رفضاً قاطعاً أيّ توجّه نحو اسرائيل. وكانت المشاكل الناتجة عن هذه المنافسة باقية "تحت السيطرة" ويمكن "لملمتها" طالما بقي المتنافسان في لبنان، ولم يكن عند أحدهما "مرجعيات إقليمية" ولم يَستَقوِ بالخارج.

بعد أن قرأت مذكرات جوزاف أبو خليل[1] ورحلاته المبكرة مع بشير الجميل إلى إسرائيل، وبعد أن استمعت إلى كريم بقرادوني[2] يروي بانبهار "انبهار" بشير الجميل بأساليب التنظيمات الإرهابية الإسرائيلية بتوحيد صفوفها عند قيام الدولة اليهودية، تأكدت أنني لم أكن مخطئاً حين قلت إن عملية إهدن عملية إسرائيلية، بفكرتها وتخطيطها وتنفيذها، وبالأهداف المرسومة لها.[3] وإن صمود الرئيس فرنجية فشّلها وعطل مفاعيلها.

١- جوزف ابو خليل: "قصة الموارنة في الحرب - سيرة ذاتية - " طبعة ثالثة - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت ١٩٩٠

٢- كريم بقرادوني في تصريحاته إلى شبكة "تلفزيون الجزيرة" في المسلسل الوثائقي بعنوان: "حرب لبنان".

قبل مجزرة إهدن، كانت علاقات المسيحيين، والجبهة اللبنانية خصوصاً، بسوريا شيئاً، وصارت بعدها شيئاً آخر. الجبهويون جميعاً، من أكبرهم سنّاً وقدراً الرئيس كميل شمعون، إلى أصغرهم سنّاً بشير الجميل، مروراً برئيس الكتائب الشيخ بيار الجميل ونجله أمين الجميل وممثل الرهبانيات الأباتي شربل قسيس، ذهبوا إلى دمشق وطلبوا تدخل القوات السورية. ولقد بات ثابتاً أن الشيخ بيار الجميل، رئيس الكتائب اللبنانية، عرض على الرئيس حافظ الأسد، في أحد الاجتماعات الكثيرة التي عقدتها قيادة الكتائب مع القيادة السورية، قيام وحدة بين لبنان وسوريا، وأن

٣- رواية "خيط رفيع من الدم" صفحة ٢١٢ وما فوق. فيما يلي نموذج مما كتبت في تلك الرواية: "ومنذ ذلك اليوم اتخذوا قرارهم. ولكن كيف ينفذونه؟ هذا الرجل عنيد، لا يريد أن يفهم بالمليح. لا يغريه وعد ولا يخيفه تهديد. يقول لهم لا. يعرقل مشاريعهم. يقطع عليهم طريق المغامرة. يجب أن يزول هذا الرجل. ولكن كيف؟ "قال لهم اصدقاؤهم في اسرائيل: يجب ان يبقى. ولكن يجب ترويضه. يجب ارغامه على العودة الى الحظيرة طائعاً مستغفراً على ما فعل، طالباً العفو والأمان، كي يتعلم الآخرون. ولا يعود يعلو صوت فوق صوتكم. اعجبتهم الفكرة. يفتشون عنها من زمان. ولكن كيف؟ "بأن يضرب بأعز ما لديه. بعنفوانه، بابنه، بقاعدته. لا تمسوه شخصياً. اضربوا كل ما هو مهم بالنسبة اليه. اقتلوا طوني، في بيته، وفي إهدن. اقتلوا كل من تصادفونه. احتلوا إهدن. جرّدوه من كل ما يعمل قوته. ذلوه. اضربوه على رأسه. اتركوه وحيداً عارياً من الأمل والكرامة. وسيأتي اليكم على الأربعة. وعندئذ، أعيدوا اليه مظاهر الاحترام والتبجيل. رئسوه الاجتماعات. تحدثوا عن حكمته. أشيدوا بوطنيته. تغنوا بتساميه وتعاليه على الجراح من أجل الطائفة ومن أجل الوطن. فيصبح عندكم قطعة اثرية ثمينة تزينون بها اجتماعاتكم. ويصبح حجة وبرهاناً تذيلون به بياناتكم". المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧.

الرئيس الأسد كان الداعي إلى التريّث والحذر[٤]
ليس على حدّ علمنا أن زعيماً لبنانياً آخر، بحجم بيار الجميل، أو أدنى منه ذهب في التماهي مع القيادة السورية إلى هذا الحدّ. ومن يتخوّف دائماً من أن يقوم نائب في المجلس النيابي ويدعو إلى الوحدة مع سوريا؟

بعد اغتيال طوني فرنجية بأسابيع معدودة، دخلت الجبهة اللبنانية في حرب فعلية مع القوات السورية، التي كانت استقبلتها بالرز والزهور وقوارير العطور عند دخولها إلى لبنان. وفي بيان أدلى به أمام الجمعية الوطنية (المجلس النيابي) في باريس، عن تلك الحرب التي ألحقت أضراراً لا تُقدَّر ببيروت الشرقية وسقط ضحاياها بالمئات، أعلن لويس دي غيرينغو، وزير خارجية فرنسا، أن الميليشيات المسيحية هي البادئة بالعدوان. وانتظر مسيحيون في بيروت الشرقية أن تهرع إسرائيل لنجدتهم، نتيجة للعلاقات بين كميل شمعون وبشير الجميل والقيادة الإسرائيلية. ولا يزالون ينتظرون.

قبل اغتيال طوني فرنجية، كانت علاقات الرئيس فرنجية

---

٤ - الياس الهراوي - "عودة الجمهورية من الدويلات الى الدولة"، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٢ - ص٩١ - ٩٢.

بسوريا شيئاً وصارت بعده شيئاً آخر. كانت علاقة الندّ للندّ، مع وعي كامل للندّين بحدود ندّية كل منهما.

لم يكن الاختلاف مع سوريا هدفاً بحد ذاته، لكن الرئيس فرنجية كان مستعداً للاختلاف إلى حدّ القطيعة في عام ١٩٧٣، على أثر الاشتباكات بين الجيش اللبناني والفدائيين. وكادت القطيعة تتكرّر في أواخر ١٩٧٥، بعد لقاء عاصف في قصر بعبدا بين الرئيس فرنجية ووزير الخارجية عبد الحليم خدام ورئيس الأركان اللواء حكمت الشهابي. كان الرئيس فرنجية يناقش القيادة السورية ويجادل أعضاءها ولا يعبأ بأن تخرج الاختلافات إلى العلن. بعد اغتيال نجله وعائلته والثلاثين زغرتاوياً، لم يختلف معهم ولا مرة في العلن. وفي المرتين أو الثلاث التي ظهر فيها تباين في وجهات النظر، حرص الرئيس فرنجية على أن يلقي مسؤوليتها على حلفاء سوريا أو على سلوك عدد من ضباطها في لبنان. وكان يسعى دائماً إلى لقاء الرئيس الأسد بعد كل اختلاف أو تباين، فيصمت الساعون "بالخير" والشامتون.

قبل اغتيال طوني فرنجية وعائلته، كلّف الرئيس الياس سركيس الرئيس فرنجية بمهمة لدى الرئيس الأسد بعد حادثة

الفياضية.[٥] ورافقه في هذه المهمة الصعبة وزير الخارجية فؤاد بطرس. روى لي الوزير فؤاد بطرس أن الرئيس الأسد أظهر احتراماً كبيراً للرئيس فرنجية لكنه لم يلبِّ جميع مطالبيه. لاحظ أنه لم تكن للرئيس فرنجية تلك "الدالة" أو "المونة" على الرئيس الأسد. بعد الاغتيال، صارت رغباته أوامر. خصوصاً وأنه سيّدُ مَن عرف حجمه وحدوده، وأنه أبيّ نبيل لا يطلب، ولا يقبل كل أنواع الهدايا.

قبل اغتيال طوني فرنجية وعائلته والآخرين، انكفأ المقاتلون المسيحيون إلى المنطقة الشرقية وحصروا تجمعهم في إطارها و"نظّفوها"، وشجعوا أبناء دينهم في المناطق الغربية على مغادرتها. واعتبروا ذلك انتصاراً عسكرياً وفتحاً حضارياً وتغنّوا بهما. لكن المناطق ظلت مفتوحة على بعضها. وإذا أراد واحد أن "يغامر" ويقوم برحلة في "مجاهل" المنطقة الثانية كان يفعل ذلك على مسؤوليته، فالطرقات مفتوحة. وغالباً ما كان يعود سالماً.

بعد اغتيال طوني فرنجية، أقاموا الحدود ورفعوا السواتر والسدود ودفّعوا الناس رسم دخول وخروج، ووضعوا رسوم

٥- حادثة الفياضية في ٨ شباط ١٩٧٨، وكان العقيد أنطوان بركات قائد المدرسة الحربية. وقد أبلغني أن السبب المباشر للحادثة التي سقط فيها زهاء خمسة عشر قتيلاً من الجنود السوريين، اصرار مجموعة من قوات الردع على اقامة حاجز على مدخل الثكنة. ويروي كريم بقرادوني ان الرئيس الاسد دخل في ثورة من الغضب حين أخذ علماً بالتفاصيل وطالب بتسليم الضباط المسؤولين عن الحادثة للتحقيق معهم في دمشق. رفض الرئيس سركيس الطلب، وتمنى على الرئيس فرنجية ان يتولى مهمة تهدئة الرئيس الاسد وايجاد مخرج عادل ولائق للمشكلة .

جمرك على البضاعة. وبينما كان إعلاميون يتحدثون عن "المنطقة المسيحية" رفع إعلامُهم شعار "المجتمع المسيحي". حاجز "البربارة" الفاصل بين محافظتي الشمال وجبل لبنان، على الطريق البحري بين طرابلس وبيروت لم يتوقف عن ممارساته في سبيل "تعزيز الوحدة الوطنية" إلاّ بعد اتفاق الطائف. واتهموا الناس جميعاً بالتقسيم. وحمّلوا اللبنانيين جميعاً مسؤولية ما جرى ويجري. كان إعلامهم قوياً، فتصوّروا أنهم أقوياء. وانتهوا بأن صدّقوا إعلامهم.

زغرتا – ساحة كنيسة السيدة: الرئيس يقود موكب الصمت الرهيب

بعد ظهر اليوم التالي، سارت زغرتا كلها، وربما المنطقة برمتها، وراء الرئيس سليمان فرنجية، في الموكب الجنائزي. عبثاً حاولوا إقناعه بأن يسبقهم بالسيارة إلى باحة كنيسة سيدة زغرتا.

ذكّره الحكيم الرهبان بأن المسافة بين القصر وكنيسة السيدة طويلة زهاء كيلو مترين، وقال له إنه لا يجوز أن يمشيها في حرّ الشمس. فالارهاق والزعل والكبت قد تتسبب بانخفاض ضغطه. وهذا لا يناسبه، ولما يَمضِ شهرٌ على الذبحة القلبية التي تعرّض لها.

تمنى عليه البطريرك خريش أن يرافقه في سيارته قال له البطريرك إن مرافقته في سيارته تنقذه من احراج كبير، فهو رجل متقدم في السن والمسافة طويلة.

واشترك الرئيس سليم الحص، رئيس الحكومة الذي أرسله رئيس الجمهورية الياس سركيس ليمثله في الجنّاز، في محاولات الإقناع. عبثاً. لم يردّ على أحد. لم يلتفت إلى أحد. لم يسمع كلام أحد. شفتر ومشى. ومشوا وراءه ممتلئين بالغضب والثورة والكرامة المجروحة.

كان يعرف أنه لا بدّ من أن يقود الموكب. كان يعرف أن

أنظاراً كثيرة تتجه إلى شوارع زغرتا للتأكد من وجوده على رأس الموكب أو من غيابه عنه. كان يعرف أن أحكاماً وأفكاراً كثيرة ستُبنى على ذينك الوجود والغياب. وكان لا بدّ من أن يكون هناك، ليعزّز ثقة الذين تسلّل الشك إلى قلوبهم، وليقول لمرتكبي الجريمة إنهم لا يخيفونه. كان وجوده رسالة قوية بكل الاتجاهات.

قالت لي راهبة جاءت من بعيد لتنضمّ الى جوقة التضامن والحزن: "تقدم الموكب مسافة قبل أن اسمع الصمت، فجأة. صمتٌ يرنُ في الآذان فيصمّها. لا صوت. لا شهقة. لا كلمة. لا شعائر دينية. لا تراتيل. لا صلاة. لا سيارة. لا نوبة. لا موسيقى. لا ندب. لا شيء. وقع أقدام على الزفت. والمدينة يابسة، والشوارع خالية أمام هذه الجموع المتدفقة كموج بحر أخرس. وصدور تغلي. تكاد تسمع جيشان عواطفها وخفقات قلوبها، في هذا الصمت المخيم على هذه الكمية من البشر، طوال هذه المدة من الزمن وكل هذه المسافة التي لا تنتهي. سار الموكب زهاء ساعة ليعبر زهاء كيلو مترين".

في باحة الكنيسة وفي أثناء الجناز، أخذ سليمان فرنجية الكبير سليمان الصغير في حضنه. كان الحكيم يوسف الرهبان يقف إلى جانبه. فجأة، تعالت همدرة ثم تحوّلت إلى هدير. انحنى

الرئيس على سليمان الصغير وضمّه إلى صدره. وبحركة عفوية، وجد الحكيم الرهبان نفسه يبسط يديه من كل جهة ويمسك أيادي شباب آخرين، وتشابكت الأيادي وأحاطت بالرئيس وحفيده، وشكلت دائرة قوية متراصة لا يخترقها الغدر. دقائق وانجلى الضجيج عن شائعة وعاد الشباب إلى مواقعهم. ولم يرجع إليهم الشعور ببقاء عدل على وجه الأرض. وأيقنوا أن البراءة ماتت. وقال قائل: إذا كان عندنا رجال يأمرون بارتكاب هذه الفظائع، وإذا كان عندنا رجال ينفذون هذه الأوامر دون تردّد، فهذا يعني أنها النهاية.

"تجيء ساعة يظن فيها من يقتلكم أنه يؤدي فريضة الله."[1]

وعاد الموكب الجنائزي الى القصر. هذه المرة، اقتنع الرئيس فرنجية، ولم يتقدم الجموع.

عندما وصل الدكتور الرهبان الى القصر، أخذ مكانه بالقرب من الرئيس، لكن خارج مرمى نظره. وبعد ان جلس الجميع. وهدأت حركة المعزين، والجموع محتشدة، وقوفاً وجلوساً، في الداخل وفي الخارج، تلفّت الرئيس فرنجية يمنة ويسرة بشكل يسترعي الانتباه. وأومأ الى الحكيم الرهبان، الذي مات رعباً. تقدم منه، ماسكاً قلبه بيده، وانحنى عليه، فهمس الرئيس فرنجية في

١- يوحنا ١٦/ ٢

أذنه: "نكاية فيك، ضغطي ١٤!"

لم يصدّق الحكيم الرهبان، وعاد الى مكانه، والعيون كلها معلقة عليه، سأله جاره، بعد كثير من التردد: "ما به الرئيس؟"

- قال لي ان ضغطه ١٤ !

بعد دقائق، كانت زغرتا كلها تعرف أن ضغطه ١٤. وتطمئن.

التلفون يدق بالحاح. أخيراً، استيقظ العسكري بدوي ديب، المفصول من الجيش مع الرئيس فرنجية، وردّ بعصبية. عرف على الفور صوت جوزف منصور، سائق طوني بيك، وشعر أنه قلق ومضطرب بصورة غير طبيعية، غير انسانية. بدوي ديب "سنتر اليست" القصر، يعرف كل الاصوات التي يتصل أصحابها بشكل منتظم، بالرئيس فرنجية وبالقصر. لم يتوسّع جوزف منصور بالحكي. قال: "هجوم على القصر. هجوم قوي عالقصر." وانقطع الخط.

طار النوم من عيني بدوي ديب. فكّر: بمن يتصل؟ لم يرد على باله الا الأب يوسف يمين. دقّ رقمه.

بونا يوسف يمين كله حمية واندفاع من دون دق. كيف ويدقّ له في الرابعة والنصف فجراً؟ يا قدرة الله! قفز قفزاً من سريره ولم يفكر الا بالسيدة. سيدة زغرتا. وفي طريقه اليها مرّ بكنيستين سيدة الحارة ومار يوحنا، ولم ينتبه الى ضرورة قرع أجراسهما. بفشخة واحدة، وصل من "العبي" الى ساحة السيدة.

إدمون غره الدويهي رجل في الستينات، مشهود له بالآدمية

والجد في العمل وبروح النكتة. استيقظ فجر ذلك اليوم لأن عنده طلباً الى المطار لاستقبال عائدين. يوقف سيارته العمومية في سهلة السيدة، وعند توجهه اليها صباح كل يوم، يلمس زاوية الكنيسة الشرقية تبركاً ويصلّب يده على وجهه، ويتمتم كلمات غير مفهومة يعتبرها صلاة، ويبدأ نهاراً جديداً من التعب والمزح وطلب الرزق الشريف.

وصل الاثنان الى ساحة السيدة في اللحظة ذاتها، كل آتياً من جهة. لم يصبّح ادمون غره الدويهي الاب يوسف يمين. بادره بسؤال ملهوف: "شوباك، يا بونا يوسف قبل طلوع الضو؟"

– دق الجرس، يا ادمون، هجوم عا اهدن.

قامت الحارة. قام الحي. قامت المدينة كلها. وعاد الاب يوسف يمين الى العبي، مروراً بكل الكنائس. بعضها، سبقته أجراسها تُقرع بكل ما في سواعد الشباب من عنف وغيظ.

الرابعة والنصف، في أواسط حزيران، "يجهجه"[1] الضوء في مثل هذه الساعة، ويغطّ سايد بو محرز في نوم عميق. يلتذ كثيراً بنومة الصبح. ذلك الصبح، سمع الاجراس وهو نائم فلم يفتح عينيه. وتمتم: "صوتك حنون!" سمع دوي الرصاص نطّ، وتوقع

١ – جهجهة الضوء: عامية من أصل سرياني: يتردد الفجر بالانبلاج.

فوراً ان في الجوّ شراً. سايد بو محرز فنان بالريشة وبالازميل. ومتطيّر. لم يعجبه الضجيج الذي يسمعه: أجراس ورصاص وجلبة ناس قبل طلوع الضوء؟ صعدت زوجته على "التتخنية" لتأتي ببندقيته وشلحات الخرطوش بينما هو يرتدي ثيابه على عجل: "الله يستر من رقم ١٣. اليوم ١٣ حزيران. الله يستر".

خرج مهرولاً. عند كنيسة مار يوسف التقى ببيك آب ملآن وكلهم بسلاحهم لم يتوقف البيك آب، خفف السرعة قليلاً قفز الى الصندوق. لم يسألهم ولم يقل له أحد شيئاً. وتابع البيك آب صعوداً. عند مستديرة القصر، يقف الاب يوسف يمين صرخ بهم دون أن يوقفهم: "انتبهوا على الطريق. كمين عند اجبع. عجّلوا." كان الكمين الكبير عند كرمسده.

كفرحاتا، كفرياشيت، كفرزينا، كفرفو.[٢]

لدى وصولهم الى دير مار يعقوب في كرمسده، قال أحد الذين انضموا الى المجموعة: "المطران جبير في الداخل، ولا شك انه متواطئ معهم كي يسمح لهم بالاختباء بالدير".

فار دمهم أكثر مما هو فائر: "ولماذا يتآمر المطران علينا؟ بماذا أسأنا اليه؟" كان المطران في الصالون جالساً على كنبة كبيرة

٢- كفر من كفرا بالسريانية ومعناها قرية أو مزرعة - الكفور: الارض البعيدة عن الناس. وهذه القرى الاربعة تمتد من زغرتا الى كرم سده، على طريق إهدن.

وفالشاً ذراعيه على مداهما. لم يتحرك حين رآنا ولم يبدُ عليه أي تأثر او انفعال. سأل: "شوفي يا أولادي؟" قلت بغضب وبندقيتي بيدي الاثنتين وبوزها نحو الارض: "لحد الآن ما عرفت شو في؟" ووصلت راهبة زغرتاوية من بيت فرنجية ووقفت بيني وبينه، ثم ركعت على ركبة واحدة ورفعت يمينها وأقسمت: "وحق دم المسيح ما معه خبر". وقف شعر بدني. قلت لها: "اوقفي، يا اختي، اوقفي. لن احمّل ضميري. صدقتك. قومي، دخيلك قومي".

وبعد أن هدأ التوتر وراقت الاعصاب قليلاً قالت الراهبة إنهم دقّوا عليهم في الليل، فأطل المطران من النافذة التي فوق الباب مباشرة وسألهم: "ماذا تريدون؟" أجاب أحدهم، ولم يعرفه انه مطران: "لا شيء، يا أبونا، لا شيء. ولكن لا تخرجوا." قال المطران: "وماذا تفعلون هنا بهذا الليل؟"

- "نقوم بعملية أمنية، يا أبونا. نسهر على سلامتكم. ناموا، ولا ينشغل بالكم. تصبح على خير، يا أبونا.

- "وأنت بخير، يا ابني. الله يرضى عليك."

"وعاد المطران الى سريره. وعندما استيقظنا على دوي الرصاص والانفجارات والقنابل، قلنا إنها بالفعل عملية أمنية، ولكن بين مين ومين، ما عرفنا. ولو ما وصلتوا انتم ما نزال لا نعرف شيئاً."

وتابع سايد بـو محـرز: "تركنا الدير، وحـين وصلنا الى المفرق، شاهدنا الكارثة وساعدنا على نقل القـتلى. لم يكن بـينهم جريح. كلهم ماتوا. وحـمّلناهم في السـيارات والى زغرتا ومنها بالتأكيد الى طرابلس. هنا سقط اكبـر عدد من القـتلى في عملية اهدن: سبعة عشر قتيلاً!"

وصعدوا الى إهدن. كانت لا تزال جثة احـد المهاجمين في باحة بيت طوني بيك، وقد عثروا معه على خريطة "احتلال" اهدن. تجمهرنا نتداول فيما يجب عمله. تدخل شاب من الذين حـضروا وصول الرئيس فرنجية وقال لنا إن الرئيس أمر ألاّ يتحرك أحـد وان كل شـيء يصير بوقـته. "ولن نخالف له أمراً اليوم. اتركوه بهمّه ولا تشغلوا باله بأشياء أخرى."

كنا نغلي من القهر، سالت دموعنا من الحزن.

سألت الرئيس فرنجية اذا كان المطران جبير متورطاً بشكل من الاشكال في العملية، فنفى ذلك وأضاف أنه تمنى عليه أن يقلّل من وجوده في زغرتا ومنطقتها ريثما تهدأ النفوس قليلاً. وبالفعل، غاب المطران جبير عن المنطقـة ردحـاً من الزمن ثم عاد اليها، والتقيت به أكثر من مرة في قلاية المطران في طرابلس وفي مقرّه الصيفي في دير مار يعقوب في كرمسده.

بيروت - الجامعة الاميركية - قاعة المايكروفيلم

يوم الاربعاء ١٤ حـزيران ١٩٧٨، صدرت جريدة "العمل" الناطقة بلسـان حـزب الكتائب وعنوانها بـالخط العريض على الأعمدة الثمانية: **الانفجار الصارخ: أين السلطة؟**

لولا الوضع المأساوي والجثث المكدسة في كنيسـة سـيدة زغرتا لانفجر القراء بالضحك. الحزب الذي يتحدى السـلطة كل يوم ويُذلّ رجالها وينتهك دوائرها وأوامرها ويسعى بعزم وفعالية لتجريدها من أدوات ممارسة سيطرتها ومصادرة وسائل الحـكم، يسأل عن السلطة؟

صحيح أن للرياء حدوداً. ولكن لو عرفوا الحدود، أي حدود، لما وصلوا إلى هناك. وكتب المصرّح المعتمد باسم الشـيخ بـيار الجميل ان الكتائب تضع امكانياتها كلها بـتصرف السـلطة. وسيواصل رئيس الكتائب وضعها في الايام التالية، وسيصل بـه الاصرار الى درجة العتب على السلطة لأنها لا تبادر الى استخدام هذه الاماكانيات.

هذا العنوان العريض، يليه عنوانان بخط أرفع:

مقتل طوني فرنجية وزوجته وابنته و ٣٩ من المطلوبـين والأهالي

الطيران قصف المهاجمين... والردع سيطر على الموقف

من هم المطلوبون والأهالي الذين قُتلوا؟ من هم المهاجمون الذين قصفهم الطيران؟ المعلوم ان الزغرتاويين الذين قضوا في المجزرة غير طوني فرنجية وزوجته وابنته، ثمانية وعشرون. في أي فئة صنّفتهم "العمل" "المطلوبين"؟ "الاهالي"؟ "المهاجمين؟" ومن هم القتلى التسعة الذين زادتهم جريدة "العمل" على عدد الضحايا الزغرتاويين؟ والى اية فئة ينتمون؟

اما الرواية التي حاولت "العمل" أن تسوّقها، فهي، بالحرف الواحد، كما نقلتُها من الصفحة الأولى ومن التتمة في الصفحة ١٠:

"وردت عند الساعة الرابعة من فجر أمس انباء تفيد ان القتلة والافواج المسلحة تتوزع ليلاً في قرى المنطقة تهدد وتهجر الاهلين من منازلهم وتعتدي عليهم بشتى انواع الاساءات الجسدية والمعنوية، فاندفع عدد من أهالي المنطقة في حركة عفوية تشبه بداية انتفاضة او ثورة ضد الفلتان والتعديات واتجهوا الى منزل النائب طوني فرنجية في إهدن حيث كان المسلّحون ومرتكبو الجرائم يحتمون فيه. وذلك في محاولة للامساك بهؤلاء وتسليمهم الى السلطة التي عجزت عن ملاحقتهم والقبض عليهم. وأنذر الأهالي المندفعون المسلحين في القصر بوجوب الاستسلام، فرد هؤلاء بفتح نيرانهم فجرى اشتباك استعملت فيه طلقات القذائف الخفيفة والثقيلة فسقط عدد من الضحايا بين الفريقين، قُدّر حتى مساء أمس بنحو ٤١ قتيلاً، كما سقط عدد غير محدد من الجرحى.

وسقط جانب من المنزل بينما شبت النار في جانب منه. ولشدّ ما تعاظم القصف وتضاعف عندما تبين أن النائب فرنجية الذي كان يحسبه الاهالي في بيروت، موجود داخل المنزل وقد أصيب مع زوجته وابنتهما ولم يلبثوا أن فارقوا الحياة قبل التمكن من انقاذهم."

وبعد ان تشير "العمل" إلى "مساعي التهدئة" في عنوانها الفرعي، تنتقل الى عنوان فرعي آخر هو: "الطيران يتدخّل" وتذكر أن الطيران الحربي اللبناني قام بقصف المهاجمين من الاهالي الذين كانوا في طريق الانسحاب.

هل صدّق القراء؟

لم أكن موجوداً لأحاول تكوين رأي شخصي بالموضوع، ولا أزال أفتقد المرجع الجدي الذي بوسعي أن أستند اليه للقول إنهم صدقوا أم لا. إنما الشيء الثابت والأكيد أن مخترعي الرواية لم يصدّقوا أنفسهم واضطروا الى ان يتخلّوا عنها في اليوم الثالث لتأليفها.

حين أخذت أتردّد على قاعة المايكروفيلم، في محفوظات الجامعة الاميركية في بيروت، وأستعين بالاستاذ نجيب الريّس لمراجعة الصحف اليومية وخصوصاً جريدة "العمل" وكيفية تغطيتها مجزرة إهدن، هالني مستوى الارتباك الذي وقعت فيه الجريدة الناطقة باسم الحزب وصدمني المستوى الفكري والثقافي

الذي انحدرت اليه.

لم استغرب الانحياز وقلب الوقائع البـديهية والابـتعاد عن النزاهة الأدبية والأخلاقية، فهذا مفهوم، ومن قواعد اللعبة، بالنسبة لجريدة هي ملك الحزب المرتكب الجريمة. فـ"الحروب النفسية" لم تخترعها جريدة "العمل" ولم تتوقف بتوقـفها عن الصدور. إنما استغربت الاضطراب الفكري ولغة الخشب وغياب النقاش والفكر النقدي. معظم المقالات، لا سيما الافتتاحـيات والتعليقـات، هي عبارة عن شعارات لا تلامس الواقع، وتهييج وتهديد وتمجيد للقوة والسيطرة وابتزاز الضعفاء. والحقيقة واحدة، ثابتة وملك الجريدة. تنشرها على ألسنة المسـؤولين، من الرئيس المؤسـس الى آخر مسؤول. لا يتفوّه أحد منهم إلا بالحـكمة والموعظة الحسـنة، ولا يعمل أحد منهم عملاً إلا لمصلحة الوطن...

أعرف أن هذه الصفحات ليسـت المكان الأنسـب لاجراء دراسة تحـليلية لجريدة "العمل" وكيفية تغطيتها جريمة اهدن. لكن ما كان يجوز المرور بهذا "الاكتشاف" دون الاشارة اليه.

أفهم وأقدر أن يتلجلج صحافيون أغرار أمام حـدث بـهذه الخطورة. أما أن يبلغ الارتباك هذه الدرجة بصحافيين متمرّسـين يوزّعون الدروس في المهنية والوطنية، وينصبّـون أنفسـهم مناضلين وقادة رأي، فهذا ما أثار دهشتي وحيرتي وعزّز شكوكي

وتساؤلاتي بمشاريعهم وقدراتهم. لا سيما وأنه يجوز الاعتقاد بأنهم أخذوا علماً بالعملية قبل تنفيذها. وربما شاركوا بمناقشـة جدواها وأهدافها، إن لم يكن بالتخطيط لها. وبالتالي، يصعب التصديق أنهم فوجئوا بها.

لكنهم، بالتأكيد، فوجئوا جداً بالرئيس فرنجية.

أعتقد أنهم فوجئوا بموقـفين: أولاً، صمود الرئيس فرنجية والتفاف زغرتا حوله. ثانياً، ضبطه مؤيديه ومناصريه وحـماية كتائبيي المنطقة من غضبهم وانتقامهم.

أعتقد أنهم كانوا يراهنون، في القيادة الكتائبـية والقـواتية الضالعة في القضية، على انهيار سـليمان فرنجية، وعلى خروج الأمر من يده وفلتان جماعته، على غرار ما حدث بعد اغتيال كمال جنبـلاط، فتتخذ تلك القـيادة من الانهيار والفلتان دليلين متأخرين على سلامة العملية وضرورتها الوطنية.

أما مظاهر الارتباك فتبدأ في العنوان: برأيي أن كل شـيء كان ممكناً ومقبولاً ما عدا التساؤل عن السـلطة. فجأة، أصبحـت السلطة مطلباً كتائبياً وقـواتياً، وهم الذين يعملون كل شـيء على اضعافها؟ وفي عدد القـتلى: إنهم ٣٩ في العنوان و ٤١ في صلب الموضوع. وغاب اسم بشير الجميل من العدد كله، وهو الذي كان

مالئ الجريدة والحزب والحي والمنطقة ولبنان بأسره. أين اختفى الشيخ بشير، قائد القوات اللبنانية؟ سرّ عسكري واعلامي.

بالمقابل، يحظى الدكتور سمير جعجع باهتمام ربما كان بغنى عنه. فالجريدة لا تكتفي بنشر خبر إصابته، إنما تنشر خبرين، في العدد ذاته، في مكانين مختلفين وفي صيغتين متقاربتين ومتباعدتين في آن.

في الخبر الأول المنشور في الصفحة الثالثة تحت عنوان: "السلطة النائمة وأحداث الشمال – تتمة" قالت جريدة "العمل": "ونُقل الى مستشفى أوتيل ديو في بيروت الدكتور سمير جعجع، الذي أصيب وهو في طريقه إلى إهدن لاسعاف الجرحى، في كمين نُصب له في الطريق."

ونُشر الخبر الثاني في صلب الرواية العامة عن العملية. ووقع في الصفحة العاشرة على النحو التالي: "وبينما كان يجري تطويق الانفجار في إهدن، نُصب كمين على طريق كوسبا لأحد مواطني بشري الدكتور سمير جعجع وأطلق عليه المسلحون النار فأصابوه بجروح نُقل على أثرها الى بيروت للمعالجة." مسكين، الدكتور جعجع، دائماً مظلوم! على أمل أن يكون غفر بدوره للذين "اعتدوا" عليه، كما غفر له الذين كان يريد اسعاف جرحاهم!

ولا توجّه الجريدة الكتائبية أي اتهام للردع السوري، بالعكس أعطته دوراً ايجابياً وأحلّته محل السلطة وجعلته يسيطر على الوضع. بانتظار ان تغيّر رأيها حين أدركت خطأها الجسيم بارتكاب تلك الجريمة، فأطلقت حملة تشكيك بدور قوات الردع وأشاعت أنه ما كان بامكان وصول مسلحين الى إهدن دون تواطؤ القوات السورية التي تراقب الطرقات بشبكة من الحواجز.

وزجّت بسلاح الجو اللبناني في العملية وذكرت أنه قصف المهاجمين عند انسحابهم. ويعرف أصغر صحافي ان الجيش لا يمكن الا ان يكذّب الخبر وينفيه. وهذا ما فعلته القيادة، في اليوم التالي وفي جريدة "العمل" ذاتها. ومن أين جاءت بـ"مساعي التهدئة" وبـ"تطويق الانفجار"، وجثث القتلى لا تزال حارة ولم تُدفن بعد؟

وفي اليوم الثالث، انتصرت "العمل" على ذاتها، وقامت من بين "المطلوبين والأهالي والمهاجمين"، وكبّت الارتباك في البحر، وصدرت يوم السبت ١٧ حزيران ١٩٧٨ بأعرض عنوان لها عن العملية، وعلى الأعمدة الثمانية:

الكتائب ترد على التساؤلات

بيان كتائبي شامل يصدر اليوم

وعاد الشيخ بشير الجميل الى الظهور بـــعنفوانه ورجوليته وجرأته على الاغتيال...

هل يعني ذلك ان كل الذي كتبـــته جريدة "العمل" الكتائبـــية، حتى "سبت النور" كان يثير تساؤلات ولا يقدم أجوبة؟

ويوم الأحد ١٨ حزيران يوم نشر البيان الشـــامل، صدرت "العمل" بالعنوان العريض أيضاً:

بيان الكتائب: النقاط على الحروف

- حادث إهدن أشبه بفاجعة بعد زلزال وبانفجار حالة متردية.

- القضية هي قضية تحجيم الكتائب وسائر الاحزاب اللبنانية.

- قتلوا جود البايع ووضعوا لوائح بأسماء مسؤولين كتائبيين تمهيداً لتصفيتهم.

هذه هي العناوين التي اختارتها جريدة "العمل" لبيان حـــزب الكتائب. وغاب الاهالي المنتفضون والذين "هجّرهم قتلة مجرمون وأنزلوا بهم شتى انواع الاساءات الجسدية والمعنوية".

واستعرض البيان تاريخ العلاقات السياســـية بـــين الرئيس فرنجية والكتائب خصوصاً، وبينه وبين الجبهة اللبـــنانية عموماً. وجاء البيان في صيغة سياسية لا تخلو من حجة وتخضع للنقـــاش

والحوار. لو لم يكن تحت الارض واحـــدٌ وثلاثون طفلاً وشـــيخاً وشاباً ورجلاً وامرأة.

معقول ان كبار المسؤولين في الكتائب والقـــوات لم يكونوا كلهم على علم بالعملية. ومعقول أيضاً ان كبار المســـؤولين الذين كانوا على علم لم يكونوا كلهم موافقين عليها. ومعقول أيضاً وأيضاً أن كبار المسؤولين الذين كانوا على علم بها وموافقـــين عليها، لم يريدوا أن تصل الى حد القتل الجماعي.

ولكن المؤكد أيضاً وأيضاً وأيضاً، أن عدد هؤلاء تضـــاءل بشكل مذهل بعد ارتكاب الجريمة لأنها فشلت. والفشل ليس له أب! والمثير للدهشة أن قارئ الادبيات الكتائبية والقـــواتية لا يجد أثراً لعملية إهدن فيها. وإذا أقدم أحدهم على ذكرها فعلى سبيل التأسف والاســـتنكار، دون الخوض في تفاصيل تقـــريرها وتنفيذها، مع اعترافهم بخطورة العملية وبالنتائج السلبـــية التي ترتبـــت عليها، مسيحياً ولبنانياً.

ولا بدّ من ان يبادر أحدهم، ذات يوم، إلى تقديم رواية واقعية ومعقولة إن لم تكن صادقة لآلية تقرير العملية ومسؤولية تنفيذها، وابراز الاسباب والمبررات التي استندت اليها القـــيادة الكتائبـــية والقواتية لاقناع عناصرها بضرورة العملية وجدواها.

عسى تحصل المفاجأة في الذكرى الخامسة والعشرين للعملية. "عفا الله عما مضى"، قال أصحاب العلاقة. وهم عند كلامهم. وبعد ربع قرن، صار بالامكان التعاطي مع العملية تعاطياً تاريخياً صادقاً ونزيهاً. إنها مفصل أساسي من مفاصل الحرب ولا يجوز ابقاء التعتيم عليها. فالتعتيم لا يلغي مسؤولية مرتكبيها.

لا يستبعد زغرتاويون ان تكون الحملة على إهدن استهدفت أيضاً احتلال المدينة العالية والاعتصام فيها أياماً، وحرمان الهدنانيين من الوصول اليها، لاعطائهم درساً وافهامهم أن ذراع "القوات اللبنانية" طويلة، وتصل الى حيث تريد، ساعة تريد وكما تريد.

ويبدو أن المدافعين عثروا على خرائط فقدها المهاجمون في استعجالهم الانسحاب تحت وطأة الهجوم الزغرتاوي. وبعد مراجعتها وقراءتها، استنتج عسكريون زغرتاويون أن "الاحتلال" كان وارداً.

ما الذي حال دون هذا الاحتلال الموقت؟ ربما إصابة قائد العملية، والخسائر التي مُنوا بها بفضل المقاومات الفردية وغير المنظمة، على أيدي زغرتاويين صودف[1] وجودهم في إهدن،

١ - صودف وجودهم، لأن في مثل هذا الوقت، لا يكون اهالي زغرتا باكثريتهم الساحقة قد صعدوا بعد الى اهدن، لا يبدأون الصعود الكثيف، الا بعد انتهاء المدارس في اواخر حزيران ومطالع تموز.

وكانوا يتصوّرون أنهم يقاومون هجوماً فلسطينياً. كانوا يطلقونالنار ويصرخون بالمهاجمين: "تلاحقوننا الى هنا؟ أهلكم وأهل فلسطين وأهل من أرسلكم الينا؟"

لم يخطر ببال واحد من هؤلاء أن تبذل "القوات اللبنانية" هذا الجهد الجبار للهجوم على اهدن.

وفي تلك الايام البائسة، وفي غمرة الآلام والأحزان، وفي عزّ اشتداد حملات التشويه والافتراء، وجد الرئيس فرنجية نفسه مضطراً لأن يخوض معركة على جبهة لم يتوقعها على الاطلاق. بينما كان قائد السرايا السورية الخاصة، رفعت الأسد يقدم تعازيه، اذا به يعرض على الرئيس فرنجية، وبلهجة توحي باعتقاده الراسخ بأن الرئيس "لا يستطيع رفض العرض"، قصف مدينة بشري عقاباً لها على اشتراك عدد من أبنائها الأغرار في الهجوم على إهدن.

قال لي الأب يوسف يمين إن الرئيس فرنجية فوجئ بالعرض الذي هزّ بدنه هزاً عنيفاً، فجفّف دموعه وجلّس قعدته، وحسم الموضوع، ولم يقبل مجرد النقاش فيه، رافضاً رفضاً قاطعاً رشق مدينة المقدمين ولو بوردة. مؤكداً ان هذا "ما يراهن عليه مرتكبو الجريمة، أن نفقد صوابنا وأعصابنا ونرتكب الحماقات يميناً ويساراً، فنعطيهم مبرراً لجريمتهم ونجد انفسنا معزولين في بيئتنا، التي يحبنا أهلها ويتضامنون معنا بشكل طبيعي. لا سيما

وان هذا الاسلوب في التصرف لا يحل المشاكل بل يزيدها تعقيداً، ويخلق أحقاداً وعداوات بين المدينتين الشقيقتين لا يعلم الا الله إلام تقود؟ علاوة على ان هذا كله ظلم بظلم. ومصيبتنا جاءتنا من الظلم والقمع والتسلّط."

لم يقتنع رفعت الأسد، لكن لم يعد بوسعه عمل شيء.

وفي هذا السياق، استاء الرئيس فرنجية كثيراً، حين بلغته أنباء مجزرة القاع، وعبّر عن استيائه الشديد وأبلغه لمن يهمه الأمر، وباللهجة التي تتجاوز بكثير حدود الاستنكار الدبلوماسي. لكن الشباب كانوا قد قُتلوا. ولم يعد ينفع الحكي.

إهدن – قصر الرئيس فرنجية – لم يقتلوا الأمل

وصلت إلى زغرتا في الخامس عشر من تموز ١٩٧٨، محاطاً بهالة المؤتمر الذي عقدناه في واشنطن، وبإعلان تضامن المغتربين الزغرتاويين مع زغرتا الأم.

لم أعد أذكر كيف علم أنطوان خواجه بوصولي، فأسرع بكل صداقته وانتزعني من بين الأحبة.

طول الطريق إلى إهدن، في عيوننا دموع. كانت له سفرات مع طوني بيك. كانت لنا رحلات وسهرات مع طوني بيك والست فيرا. كانت لنا طموحات. كانت أيام.

الرجال ينتشرون في باحات القصر الغارق في الحزن والعواطف الملتهبة. أسرعوا جميعاً لتحيتنا من بعيد بصوت واط وابتسامات حارة، دون أن يستوقفونا. كان في تحياتهم وابتساماتهم اعتزاز بتضامننا معهم كأنهم يقولون: كنا واثقين أنكم لن تخيّبوا الآمال.

لاحظ الرقيب الأول حركة الناس فرحّب بدوره، وبعد أن سجّل اسمي لأنه لا يعرفني بعد، دعانا إلى الصعود إلى مكتب الرئيس دون أن يستأذنه. كلّ الأبواب في قصر الرئيس فرنجية مفتوحة أمام أنطوان خواجه.

قبّلني الرئيس بحرارة فوقف الأستاذ جواد بولس وسائر الحضور. سلّمت وجلسنا وتابع الأستاذ جواد بولس حديثاً عن الحروب الأهلية. وعندما انتهى، توجّه إليّ الرئيس فرنجية بالسؤال: "متى وصلت؟" قلت: "أمس. إلى دمشق. ولحسن الصدف، التقيت في المطار بشاب زغرتاوي كان تلميذي،[1] فجئت معه من المطار إلى البيت".

كان مجروحاً حتى العظم. ولعمق الجرح، لم يكن بالإمكان إخفاؤه، فلم يحاول. كنت استعدّيت للقاء، ولم يحضرني شيء، فنقلتُ إليه بعفوية وتأثّر مشاعر المغتربين الزغرتاويين. وأعربت له عن حزنهم وتضامنهم وإدانتهم. قلت له إنهم لا يفهمون أهداف ودوافع فريق يزعم أنه يدافع عن لبنان وعن الموارنة، ويبدأ باغتيال سيف من سيوف لبنان وانتهاك حرمة معقل من معاقل الموارنة. سألني عنهم وعن أحوالهم، ثم أعطى الكلام للأستاذ جواد بولس الذي استأنف الحديث عن الحرب الأهلية. وقاطعه الرئيس فرنجية ليطرح عليه سؤالاً محدداً: كيف عملت فرنسا، في نهاية الحرب العالمية الثانية لتجمع السلاح من أيدي المقاومة والمليشيات؟ وماذا عملتْ برجال المقاومة وكل الذين حملوا السلاح وقاتلوا؟

١- ولا أزال مديناً لسركيس سعاده بصداقته وبتلك الرحلة.

كنت أصغر الموجودين بكل المعايير، فأصغيتُ باهتمام، وأسهب الأستاذ جواد بولس، بعلمه الواسع في الشرح. وبتواضعه الجمّ، أعطى الكلام لوزير الإعلام السابق الأستاذ هنري طربيه الذي أعطى الكلام لشقيقه المحامي الأستاذ جوزيف طربيه. وتحدث رابع، والرئيس فرنجية يصغي ولا يكتفي. قلت: لحسن حظ فرنسا والجنرال ديغول، أن باريس تحرّرت وعاد إليها الجنرال وحكومته الموقتة قبل أن تنتهي الحرب بسنة تقريباً. وبعد تحرير كامل التراب الوطني، ولم تعد ثمة حاجة للمقاومة، توجّه الجنرال ديغول، رئيس الحكومة بنداء إلى رفاقه في النضال، ودعاهم إلى واحد من إثنين: إما تسليم سلاحهم والعودة إلى الحياة المدنية، مع كل المكاسب التي استحقوها على نضالهم. أو الالتحاق بالجيش والذهاب للقتال على الجبهات التي كانت لا تزال مشتعلة. ووعدهم بأن يرحب بهم الجيش ويتساهل مع رتبهم. أما الذين يتمرّدون على الاختيارين فيجب أن يتحمّلوا مسؤولية موقفهم، لأن المقاومة واجب وطني، ولا تمنح المقاوم أي حق بالتطاول على القانون والنظام العام.

قال الرئيس فرنجية: "هذا هو الحلّ!" وارتاح. كأنه عثر على حلّ لمعضلة تشغل باله وتؤرقه.

تعجبت! لم يمض شهر على اغتيال طوني وفيرا وجيهان

والآخرين، وشغله الشاغل جمع السلاح؟ يعني أنه متفائل؟ يعني أن جريمة إهدن على بشاعتها وخسارة طوني، على فداحتها، لم تقفلا على عقله الأبواب؟ قتلوا ابنه. لم يقتلوا عقله. لم يخنقوا إحساسه الوطني. لم يقتلعوا الأمل من نفسه.

امتدت الجلسة حتى الثانية. وقف الاستاذ جواد فوقفنا جميعا".

دعا الرئيس الجميع إلى الغداء. اعتذرت متحجّجاً بوالدتي التي لم ترني من سنة واعتذر أنطوان خواجه. قال الرئيس: تعال غداً.

وغدا" كان يوم الأحد. خيّل إليّ وأنا أصل إلى باحة القصر، أن أحداً في إهدن لم يذهب إلى الكنيسة ليسمع القداس. كان الناس متجمهرين كما يتجمهرون على الكتلة في ظل التمثال أمام باب مار جرجس، أو في ساحة السيدة، عند الأبواب الممتنعة على الفرسان.[1]

وكان مكتب الرئيس مزدحما"، ومع ذلك دعاني إلى الجلوس فوقف أحدهم. حاولت أن أمنعه، قال الرئيس: "أقعد"، فقعدت. وأمعنت في الاستماع إلى أن سألني أحدهم عن المغتربين والمؤتمر فأجبت باقتضاب، فأعاد الرئيس السؤال عن عدد الحاضرين ومن اين جاؤوا ؟

– تراوح عددنا بين الأربعين والثمانين شخصاً، وقد جاؤوا من العالم كله تقريباً. من مراكز الاغتراب الزغرتاوي كلها. من المكسيك وفنزويلا والبرازيل في أميركا اللاتينية، من كندا ومن كل الولايات الاميركية. من باريس. من أوستراليا، اتصلوا ليعتبوا علينا لأننا تأخّرنا في إبلاغهم واستعجلنا في عقد المؤتمر، فلم يكن عندهم الوقت الكافي للوصول، وعلى كل حال، فهم مع القرارات

١- الكتلة هي بالفعل كتلة صخرية ضخمة في وسط إهدن، شيّد عليها الزغرتاويون كنيسة مار جرجس، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. واحتفظوا في داخل الكنيسة بجثمان يوسف بك كرم، وأقاموا له امام بابها تمثالاً وهو على صهوة جواده. أما ساحة السيدة فتمتدّ أمام كنيسة سيدة زغرتا التي كرّسها البطريرك اسطفان الدويهي عام ١٦٩٣. وأبواب هذه الكنيسة الأثرية واطئة وضيقة منعاً لدخول الخيول اليها فأطلقتُ عليها اسم "الأبواب الممتنعة على الفرسان".

التي يتخذها المؤتمر. وعاد الرئيس يسأل: ولماذا استعجلتم في انعقاد المؤتمر؟

- تعمدنا الاستعجال لنقول لمرتكبي الجريمة أولاً وللناس جميعاً إننا لن نسكت ولن نستسلم. لنقول لهم جميعاً إن زغرتا المغتربة مثل زغرتا المقيمة، لن تركع. كنّا واثقين، يا فخامة الرئيس، أنك لن تحني رأسك، برغم شناعة الضربة وقساوتها، دون أي تفاهم مسبق معك أو مع أحد من معاونيك. كنّا مقتنعين، ونحن على بعد آلاف الكيلومترات، أنك ستقف وتتصدى لهم. فقرر كل واحد منّا وحده في زاويته، أن يقف. وحين أطلق الأب هكتور الدويهي[٢] الدعوة إلى عقد المؤتمر شدّ الجميع الرحال، دون تشاور، للالتقاء وتبادل الآراء.

وبعد أسبوع واحد، كنّا نجتمع في واشنطن. وقعت الجريمة يوم الثلاثاء في ١٣ حزيران. ويوم الثلاثاء في ٢٠ حزيران ١٩٧٨، كان الأب هكتور الدويهي يفتتح المؤتمر في أحد فنادق واشنطن، بصلاة عن أرواح الشهداء.

- هل تعتقد أنهم فهموا الرسالة؟ أما كان من الأحسن الإعداد للمؤتمر وأخذ الوقت الكافي لتحضيره؟

- ردود فعلهم تدلّ على أنهم فهموا، بدليل أننا تلقينا تهديدات.

٢- الأب هكتور الدويهي كان خادم الرعية المارونية في واشنطن عام ١٩٧٨، وهو اليوم المطران اسطفان هكتور الدويهي، راعي أبرشية بروكلين المارونية، مقر كرسيّه في نيويورك.

وفهموها أيضا" الآخرون. قبل أن أغادر باريس إلى واشنطن للإشتراك في المؤتمر، ذهبت أنا والصديق أنطوان اسكندر[٣] الذي كان في باريس بالصدفة، لزيارة العميد ريمون إده وإبلاغه أننا نعقد مؤتمراً زغرتاوياً في العاصمة الأميركية لإعلان وقوفنا ضد الكتائب ومقاومة مشاريعها المدمّرة. لم يصدّق العميد أننا نجتمع في أقل من أسبوع على الجريمة. ولم يصدّق أن المبادرة فردية وليست من وحي القيادة السياسية. ولم يصدّق أننا نعقد المؤتمر على نفقتنا الخاصة. وبعد أن استنفد كل الأسئلة وأنا وأنطوان اسكندر نجيبه بشكل عفوي وصادق، قال: "أنتم شعب قوي. أنتم ناس يعتز الإنسان بقيادتهم".

ومن باريس، وقبل أن آخذ الطائرة، نجحت بالإتصال برينه بيك معوض، لينقل إليك بدوره وإلى زغرتا عموماً قرارنا، فتحمّس للفكرة وقال: قوموا، تحرّكوا، إعملوا أي شيء، المهم أن تتحرّكوا ليعلم العالم كله أننا لن نسكت. جيّشوا كل الطاقات، استنفروا كل الشباب. المعركة معركة حياة أو موت.

بخصوص التحضير، نحن الآن بصدد جلسة ثانية. وسنعقدها بعد مرور ستة أشهر على الجريمة، ومن الآن إلى ذلك الوقت نعكف على التحضير، وعندنا عدة دعوات من كندا والمكسيك والبرازيل لعقد المؤتمر القادم في إحداها. وسنعقده. وأنا

٣- المهندس المعماري انطوان اسكندر - مؤسس شركة "الميدان للاستشارات الهندسية" في أبو ظبي.

هــنا للمباشرة بالتحضير.

قبل أن أغادر، سألني الرئيس فرنجية: "هل تستيقظ باكراً؟ قلت: "نعم !"

قال: "تعال إذن، غداً، في الثامنة، ونحــكي دون أن يزعجنا أحد."

"زغرتا في العالم" تعلن الحرب على الكتائب

في تمام الثامنة من قبل ظهر السابع عشر من تموز ١٩٧٨، كنت أمام بـــاب القصر في إهدن. لم يندهش كثيراً الرقيب الأول، وقال رداً على تحيتي: "لو لم يطلب منك لما حـــضرت في مثل هذه الساعة". وأضاف كلاماً، وهو يفسح لي الطريق، بـــما معناه أنه لا يحسدني على الزيارة في هذا الوقت.

وصعدت. الدرج إلى مكتبه في الطابـــق الأول يلتوي مرة، ومن سفرة الالتواء رأيته جالساً وأمامه السيدة إيريس، وقد وضعت يديها على ركبتيه وأغرقت فيهما رأسها، والإثنان يبكيان. بصمت. بغزارة. بقهر لا يتصورّه انسان.

"وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل في أحشائكم روحاً جديداً وأنزع من لحمكم قلب الحجر وأعطيكم قلباً من لحم."[1]

بالتأكيد، لم تكن الست إيريس تنتظرني ولا تنتظر أحـــدا" في مثل هذه الساعة. كان الرئيس بأناقـــته المعهودة وهي في فســـتان النوم والليل الأسود الذي زجّوها فيه. لم تحـــاول أن تخفي دموعها ولا أن ترتّب شعرها المنفوش. حدقت بـــي مليّاً كأنها تحـــاول أن تتذكر هذا الوجه، ثم دارت وتوارت. بينما نهض الرئيس وسبقني.

١-حزقايل ٣٦/٢٦

حاولت أن أعتذر عن الإزعاج، قاطعني بلهجة كادت تكون جافة: "أنا طلبت منك أن تحضر".

لم يجلس إلى الطاولة المستديرة التي سنجلس إليها طويلاً ومراراً، قرّب كرسياً من كرسيه، وبحركة من يده دعاني إلى الجلوس. وبعد قليل، قال: "أرى أنك تحمل ملفاً. نتابع ما بدأناه أمس". فتحت الملف وتابعنا.

كان الملف والحديث عن الجمعية التي أسسناها في واشنطن وأطلقنا عليها بتواضع كلي اسم: "زغرتا انترناشنل" أو "زغرتا في العالم".

همَّه الموضوعُ كثيراً. الملف سميك، قرأ النصوص التي لا تتجاوز الصفحتين وسأل عن جميع المشتركين، وأصغى باهتمام إلى الأجوبة، دون أي تعليق. لاحظت دهشة أو استغراباً، حين جاء الحديث عن الأب هكتور الدويهي، فأدركت أنه تلقى "تقارير" مناقضة لما أقول له، وأنه متأثر بها، لا بل أنه ميال لأن يصدقها أكثر مما يصدقني. "تقارير" من جماعة يزعمون الانتساب إليه، وهم في الواقع لا ينتسبون إلى قضية ولا مبدأ ولا حقيقة. وقد يكون ذهب ظنهم أنهم يخدمونه وهم يحرّفون مواقف الأب هكتور. جماعة يتصوّرون أنهم يرفعون من شأنهم إذا حطوا من شأن الآخرين. وكان عنده ضعف تجاههم. في تلك الظروف القاسية،

كانت مناعته أضعف من أي وقت آخر، خصوصاً وأنهم كانوا أكثر المتظاهرين بالالتفاف حوله، وكانوا إلى جانبه، بينما الآخرون يعملون كل في حقله.

طوال الجلسة، يقرأ ويسأل ويهز برأسه. استوقفه مؤتمر صحافي عقدتُه في واشنطن بفضل ومساعدة الزميلين رفيق خليل المعلوف وباسم المعلم[٢] في ختام المؤتمر المذكور قلت إننا أعلنا الحرب على الكتائب، عموماً، وعلى جميع المشتركين في مجزرة إهدن، وأكدت أن عدداً من الزغرتاويين بدأوا يستعدون للعودة للاشتراك في هذه الحرب. كانت جريدة الأوريان - لوجور الوحيدة التي نشرت مقطعاً من ذلك المؤتمر ولم تنسَ أن تنسبه اليّ. سألني عن مدى جدية هذا الكلام. قلت له أن أعضاء المؤتمر اقترعوا بشبه إجماع عليه، وذكرت له أسماء عدد من الشباب الذين يحملون الجنسية الاميركية وهم من أصل زغرتاوي والذين يعرف أهلهم والذين طلبوا فعلاً الحصول على فيزا للسفر إلى لبنان. وقد سألوني تفاصيل عن كيفية الوصول إلى زغرتا دون المرور بالمنطقة الشرقية، فأخبرتهم أنني شخصيا" سأطير إلى دمشق، ومنها بالسيارة إلى حمص وطرابلس وزغرتا. كانت الطريق بحد ذاتها مشكلة لعدد منهم وكانت رادعاً.

٢- رفيق خليل المعلوف كان مراسل "النهار" وباسم المعلم مراسل "مجلة المستقبل" الصادرة في باريس وإذاعة مونت كارلو وبفضلهما عقدت المؤتمر الصحافي في واشنطن.

وقلت: كلفنا المؤتمر، الخوري هكتور الدويهي وأنا، أن ننقل إلى سفيري لبنان في واشنطن ولدى الأمم المتحدة في نيويورك فحوى المؤتمر ونسخة عن التوصيات. وكان سفير لبنان غائباً" فقابلنا القائم بالاعمال. أما سفير لبنان في الأمم المتحدة الأستاذ غسان تويني فقد رحب بنا بحرارة في مكتبه في نيويورك ثم دعانا إلى منزله حيث أبدى إعجابه ودهشته بسرعة تحرّكنا، تماماً كما فعل العميد ريمون إده، وجلس يروي لنا ويبكي كيف أنه في لقائه الأخير بالرئيس فرنجية، قبل سفره إلى نيويورك، دخلت عليهما الطفلة الصغيرة جيهان، وقال إنه داعبها وغنّجها وحملها، وكم هو متحسّر لأنه تعرف بها. ودّ لو أنه لم يعرفها. ثم أثنى على تحرّكنا وروى لنا أنه كان يتابع، يوم الجريمة، عملية انسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان بناء على قرار الأمم المتحدة رقم ٤٢٥، الذي تمكن السفير تويني من انتزاعه من مجلس الأمن بمعجزة دبلوماسية. وأنه اتصل بالقصر الجمهوري في بعبدا من نيويورك في ساعة مبكرة فتعذّر عليه التحدث إلى الرئيس سركيس. ويبدو أن أحد الموظفين قال: "مين فاضي يحكي مع نيويورك هلّق"، فغضب السفير تويني وقال: "إذا كنتم مش فاضيين للأمم المتحدة، خلّيني روح إعمل شي شغلة أنفع لي."

واستدرك موظف آخر الموقف ووصل السفير الغاضب بالوزير فؤاد بطرس، الذي هدّأه وأخبره أنهم علموا لتوّهم أن هجوماً وقع على إهدن وأن المهاجمين اغتالوا طوني فرنجية وزوجته وطفلته في بيتهم. عندئذ "راق" السفير تويني وقدّر موقفهم. وقال لنا إنه قال لفؤاد بطرس على الفور: "هذه عملية كتائبية". الكتائب قتلوا طوني فرنجية. لا يعملها أحد غيرهم."

وقال لنا السفير تويني إن الوزير فؤاد بطرس استغرب ردة فعله، لكنه قال له: "دبّر حالك واعمل ما تراه مناسبا". لا أحد منا يفهم أكثر منك. ودعنا نحاول أن ندبّر أمرنا هنا".

لو طلبت دليلا" على اهتمامه بالحديث والملف لما وجدت أفضل من الدليل الذي جاءت به الصدفة. فقد صعد الرقيب الأول، في العاشرة والنصف، وبعد أن أدى التحية، أعلن عن وصول الشيخ سيمون بولس. وكم كانت دهشتي عظيمة أن أرى الرئيس يقول له أن يتريث قليلاً. وكانت دهشة الرقيب الأول أكبر من دهشتي وتابعت زهاء ربع الساعة، إلى أن رأيته يطوي الملف ويقوم إلى طاولته المستديرة، قائلاً: "ابق على الغداء." اعتذرت لسبب تفهّمه ثم قال: "خلينا نشوفك." قلت: "بالتأكيد". وتناولت الملف وهممت بالانصراف، قال: "أترك لي الملف، وتعال سلّم على الشيخ سيمون". وكبس الرئيس الزر، فصعد الرقيب الأول.

قال له الرئيس: "ليتفضل الذوات." ولم يُخفِ بعضهم دهشته من رؤيتي وحيداً مع الرئيس.

في تلك الجلسة لم يحك كثيراً. قرأ وسأل وأكثر الأسئلة عن مواقف المغتربين الزغرتاويين ومشاعرهم. قال مرة: "أعرف أن معظمهم مع الكتائب إن لم يكونوا كتائبيين". قلت: "معظم الزغرتاويين في الوطن وفي المهجر كانوا مع الكتائب. أنت ذاتك كنت مع الكتائب ومع كميل شمعون في الجبهة اللبنانية. وذكرتُ له أن زغرتاوياً كندياً حضر المؤتمر روى لي أنه وضع سيارته الكاديلاك بتصرف الشيخ بشير الجميل عند زيارته كندا، وأنه عمل له سائقاً". وأضفت أنني أشك بأن يبقوا كتائبيين، لا سيما إذا نشطت جمعيتنا، وإذا حصلنا على أجوبة معقولة ومقنعة عن الأسئلة التي يطرحها المغتربون. قال: "مثل شو؟" قلت: "مثلاً، موقف السوريين من عملية الغدر. لا يصدق أحد أن الهجوم كان بالمئات وأن السوريين لم يشعروا بالتحرّك. لماذا لم يوقفوهم؟ لماذا لم يصادروا سلاحهم؟ لماذا لم يخبروكم؟

قال الرئيس فرنجية: "لا تصدّق شائعاتهم. لا علاقة للسوريين بالعملية. شغّل راسك السياسي شوية: يتواطأ السوريون مع بشير الجميل عدوّهم المعلن والمتعامل مع اسرائيل، على

اغتيال طوني فرنجية حليفهم المعلن والمتعاون معهم، والشاهر عداءه لاسرائيل؟ كيف تركب معك هذه القصة؟ أمّا السؤال: كيف وصلوا إلى هنا دون المرور بالحواجز السورية فهذا أسهل سؤال. وأنا أدلك على الطرقات التي سلكوها. وبعض هذه الطرقات الزراعية، أنا شقّيتها وزفّتها بعهدي. وتذكّر: قبل الجريمة، لم تكن الحواجز السورية بالكثافة التي هي عليها اليوم. كانوا واقفين على طرقات رئيسية وبس. وعلى كل حال، شعر السوريون بالتحرك وابلغوا عنه. لكن ما حدا تصوّر أن الكتائب يمكن أن تصعد الى إهدن لهذه الغاية. قديش كانوا محشورين!"

"لا تخافوهم. فما من مستور إلا سينكشف، ولا من خفيّ إلا سيظهر".[١]

٢- لوقا ١٠/٢٦

والأجهزة اللبنانية؟

لم أطرح عليه السؤال، لا في تلك الجلسة ولا في الجلسات الكثيرة التي كانت لنا لاحقاً. مع أنه يجب أن يكون السؤال الأول. ولم اسمع أحداً يطرح السؤال. بأي حملة تسميم وتضليل صُرف نظر الناس وفكرهم عنه؟

أين كان الأمن العام؟ أين كان المكتب الثاني؟ أين كانت الأجهزة الأخرى بمخبريها والمتعاونين معها الذين لا يمكن عدّهم؟ هل يعقل ألا يكون، ولو جهاز واحد، لاحظ التحرّك واستنتج دوافعه وأهدافه؟ هل كُتبت تقارير وكُتمت؟ وأسئلة كثيرة تبحث عن جواب.

أم أن هذه الأجهزة، والمكتب الثاني بالتحديد، أراد أن "يردّ التحية" للرئيس فرنجية، الذي ضربه في بداية عهده وشرّد كبار الضباط وأحال بعضهم على المحاكمة؟

هل أرادت "الأجهزة" أن توجّه من خلاله رسالة إلى السياسيين، مضمونها أن "من يدقّ الباب يسمع الجواب" ولو بعد حين؟ وأن إضعاف الأجهزة يرتدّ في النهاية على رؤوس السياسيين الذين يتجرأون على ذلك؟

بلاد الله واسعة، فليرحلوا.

كانت الضربة قوية فقد معها زغرتاويون ضوابطهم فانطلقت دعوات للانتقام من كتائبيي زغرتا والمنطقة والشمال. لكن الرئيس فرنجية كان أقوى من الضربة ومن مفاعيلها، وانتصر على نفسه وقمع شهوة الانتقام، وأبى أن يغلط بالمجرم، أو أن "يفشّ خلقه" بالأبرياء الضعفاء الذين لا ذنب لهم في ما جرى. وهدّأ المتحمسين، وارتفع فوق الجراح، ووضع كبرياءه خلف المصلحة الوطنية والاعتبارات الانسانية، وأصدر بلاغاً [1] دعا فيه الكتائبيين في زغرتا والمنطقة إلى الاستقالة من الحزب وتسليم بطاقاتهم الحزبية وسلاحهم، وإلا فليتركوا المنطقة. "فبلاد الله واسعة". وأمر الرئيس بأن ينشر هذا البلاغ ويوزع على أوسع نطاق، وأن يُتلى في الكنائس ويُعلّق على أبوابها.

وتضامنت زغرتا والمنطقة والشمال مع الرئيس فرنجية، واستجابت لدعوته، فكان المستقيلون من الحزب أكثر من المغادرين.

برأيي، أن ذلك الموقف هو أخطر موقف في حياة سليمان

١- الواقع، لم يكن بلاغاً بالمعنى الحرفي للكلمة. كان موقفاً أبلغه شخصياً الى مخاتير ورؤساء بلديات وكهنة القرى والمدن في المنطقة، وطلب منهم ان يعلنوه في الكنائس والمجالس أنه يعطي الكتائبيين مهلة اسبوع لينسحبوا من الحزب او يغادروا المنطقة دون ان يتعرض لهم أحد. بعد اسبوع، لا يعود مسؤولاً عن أمنهم وسلامتهم .

فرنجية كلها، على كثرة المواقف الخطرة والدقيقة. في تلك الأيام البائسة، أثبت الرئيس فرنجية أنه من طينة غير طينة معظم رجال السياسة.

في لحظة ضعف، بكلمة، بإشارة، بغمزة عين كان سقط قتلى بالعشرات إن لم يكن بالمئات. وهذا ما كان يريده المخططون والفاعلون الممتلئة قلوبهم محبة للموارنة وحرصاً على لبنان. وهذا ما سعوا إليه حين ظلّوا يحرّضون الزغرتاويين ويستفزّونهم أياماً متتالية، زاعمين في إذاعتهم وفي صحفهم وفي تصريحاتهم أن أبناء المنطقة انتفضوا وثاروا وهاجموا القصر حيث يختبئ القتلة والمجرمون، ولسوء الحظ، صودف وجود النائب طوني فرنجية فقتل برصاص المجرمين الذين كان يأويهم.

كان يمكن أن يضحكوا على بعض الناس، أن يسخروا من عدد من الساذجين، أن يخدعوا عدداً من البسطاء، أن يغرّروا بالصغار... أما أن يضحكوا على أنفسهم؟

"رأس الذنوب الكذب".

"إياكم والأنبياء الكذابين"[٢]

بموقفه النبيل، بحكمته المزدوجة بالشهامة، بإحساسه السياسي المرهف وبفهمه الفوري الغاية المرسومة للجريمة،

٢- متى ٧/ ١٥

تمكّن سليمان فرنجية من فضح مخطط المرتكبين ومن تعطيل مفاعيل الجريمة ومن تحقيق الأهداف التالية:

أولاً: منع حدوث مجزرة أفظع من المجزرة المرتكبة. وهو الزعيم اللبناني الوحيد الذي عنده ميليشيا، وعنده القدرة على الفحش والذي أبى أن ينزلق في هذا المنزلق الدنئ. بعد مقتل بشير الجميل، ارتكبت "القوات اللبنانية" أشنع مجزرة عرفها لبنان، ولم يكن لواحد من الذين قتلوهم علاقة من قريب أو بعيد بعملية قتل المذكور.

ثانياً: أحبط خطة بشير الجميل بفرض سيطرته على القرار المسيحي، على عكس الرئيس كميل شمعون، الذي سارع مساء الهجوم على الصفراء وعلى مراكز أخرى "لنمور الأحرار"، الى الاجتماع ببشير الجميل وإصدار بيان "بتوحيد البندقية". ونعرف ماذا كانت نتيجة ذلك التوحيد. ونعرف خصوصاً أن عدد ضحايا ذلك الهجوم تجاوز المائة.

ثالثاً: أنقذ لبنان من التقسيم والمسيحيين من تجربة إعلان دولة مسيحية بوصاية إسرائيلية. بخروج الشمال على السلطة القواتية، صار عدد المسيحيين خارج "الغيتو" وخارج "المجتمع المسيحي" أكبر من عددهم في داخله. ولم يكونوا مسيحيين سلبيين أو محايدين أو مُهمّشين. كان لهم، بقيادة الرئيس فرنجية، دور فاعل ومتفاعل في أوساط إخوانهم اللبنانيين من كل الطوائف والأحزاب والاتجاهات.

رابعاً: أخرج الرئيس فرنجية الشمال كله من تجاذبات الحرب الأهلية، باتفاقه مع الرئيس رشيد كرامي وسائر القيادات الشمالية. وبتفاهمهم وتحاورهم جنّبوا الشمال الإنقسام الذي حدث في الجبل وفي بيروت. هذا لا يعني أن الشمال كان في نعيم، لكنه تمكن من المحافظة على الحد الأدنى من التواصل والتفاعل.

بمصيبته الكبيرة، بتساميه فوق الجراح، باحترامه نفسه، بهيبته، بالكاريسما التي يتمتع بها، حفظ سليمان فرنجية زغرتا والشمال، ولم يلجأ إلى العنف إلا دفاعاً عن النفس. وطوى قصته الشخصية مع المحرّض والمخطّط والمنفذّين ووضعها خلف الاعتبارات الوطنية. أعتقد أنها لم تغب لحظة عن اهتمامه. أعتقد أنها كانت "تأكل معه بالصحن". لكن على السكت. دون مظاهرات.

في عدد ١١ نيسان ١٩٦٥، وفي صفحة "أشخاص"، نشر ملحق "النهار" رسماً كاريكاتورياً لسليمان فرنجية بريشة بيار صادق وأتبعه بنصّ أقرب إلى قصيدة منه إلى مقالة سياسية بعنوان: "سليمان بك"

"والبيك للشهامة لا للفخامة...
ولو رجع الزمان إلى عصر الفرسان
حين كان الرجال رجولة واقداماً وشهامة،
ولو رجع الزمان لما استوحش البيك
ولرحّب الأقران...
ناظره يسأل: رجل هادئ وديع؟
وعارفه يردّ: حيث تدعو الجرأه...

ألم يأتك حديث القاهرة؟

قال كا لم يقله أحد.

ذهب الى مصر ليقول لها ثم سمع.

لا يسمع ثم يسمع فيسمع.

وإذا به يسمع ما لم يسمعه أحد من قبل.

والذي يحترم نفسه يحترم.

صداقة القاهرة مفتاح من مفاتيح السياسة العليا.

أومفتاح الحروب العليا.

ومع ذلك دعي سليمان فرنجية إلى القاهرة.

وذهب إليها لا ليستأثر بصداقتها

ويسدّ دربها على غيره بل ليفتح لهم الأبواب.

ألم نقل إن البيك للشهامة لا للفخامة"؟[1]

---

١ - المقال لا يحمل توقيعاً. ومناسبته دعوة الرئيس جمال عبد الناصر النائب والوزير السابق سليمان فرنجية لزيارة القاهرة والتداول معه في أوضاع لبنان والمنطقة. وقد صارح نائب زغرتا الرئيس المصري وقال له إن "ممثليه" في بيروت أو من يزعمون ذلك يسيئون اليه بإساءة النفوذ الذي يتمتعون به بفضل انتسابهم اليه. وقد ثمن الرئيس عبد الناصر تلك الصراحة وكشف عنها، فشاع في لبنان "حديث القاهرة ."

زمن الاجتياح

نيويورك – المؤتمر الماروني

كانت موجة المؤتمرات المارونية في بـــــــدايتها. مؤتمر نيويورك كان أكبرها. وكان شاكر ابو ســليمان رئيس الرابــطة المارونية. ورأى أن حـــــضور موارنة زغرتا والرئيس فرنجية بالذات ضروريان لصدقية المؤتمر واتساع تمثيله.

لم أعرف إذا وافقه كثيرون على هذا الرأي. المهم أنه صعد الى زغرتا سعياً وراء موافقـــة الرئيس فرنجية، التي تفتح الطريق أمام الأشياء الأخرى كلها.

بالمبـــدأ، الرئيس فرنجية ضدّ المؤتمرات من لون واحـــد، وبنوع خاص مؤتمرات المغتربين، لأنه ضدّ تطييفهم وتسييســـهم. برأيه، أن يتركهم المقـــيمون وألا ينقـــلوا اليهم ميكروب الطائفية. وألحّ شاكر أبو ســـليمان على أهمية عقــد المؤتمر في هذا الظرف بالذات، نظراً للوضع الماروني الممزق، فرضي الرئيس فرنجية، ربما تقديراً منه لجهود رئيس الرابطة المارونية. لكن بشـــرط ان يبتعد المؤتمر عن السياسة وزواريبها الضيّقة ويحـــصر اهتمامه بشؤون المغتربين وتمتين علاقاتهم بالوطن الأم وطريقة دعمه في هذه المحنة. وبرأي الرئيس فرنجية، لا يتحقق هذا الشـــرط إلا إذا أقصي بيار الجميل وولداه عن المؤتمر.

وافق شاكر أبو سليمان على الشرط، ووثق الرئيس فرنجية بكلامه وأوعز الى مَن يهمهم الأمر بالاشتراك.

لم يكن الوفد الزغرتاوي أكبر الوفود الى المؤتمر، لكنه كان أكثرها تنوعاً وضمّ عناصر جاؤوا من الولايات المتحدة ذاتها: المونسنيور هكتور الدويهي من واشنطن وجيمي كعدو من لوس انجلوس، وصليبا الدويهي من نيويورك، وجبران عريجي وريمون عنتر وجوزف زياده وأنطوان دحدح وجورج يمين وميشال الصايغ من فنزويلا. وكان بين الشخصيات الذين حضروا من لبنان نائبا بشري قبلان عيسى الخوري وجبران طوق، والأب بولس نعمان، رئيس الرهبنة اللبنانية، وجورج عدوان، وبطبيعة الحال شاكر أبو سليمان.

ما ان اكتمل شمل الزغرتاويين حتى تداعوا الى اجتماع قرروا فيه أن ينطق باسم الوفد جبران عريجي وجيمي كعدو، مع علمهم التام بالإنتماء الحزبي القومي لجبران عريجي.

وانعقد المؤتمر في فندق حياة في نيويورك وشعر الزغرتاويون انهم موضع اهتمام خاص. وقبل افتتاح المؤتمر، اجتمعوا برئيس الرابطة شاكر أبو سليمان وذكّروه بشروط الرئيس فرنجية، وبتعهده له. وتحقيقاً لهذا التعهد، وحرصاً على تجنيب المؤتمر أي انحراف ممكن، اقترح الزغرتاويون رقابة مسبقة ومتبادلة على الكلمات الرسمية التي ستُلقى، وسارت جلسات

المؤتمر دون مشاكل في اليومين الأولين. في اليوم الثالث، أبصر زغرتاويون أمين الجميل في الفندق فأجمعوا على أنهم لن يسمحوا باشتراكه في المؤتمر بأي صورة من الصور، وانهم لن "يلعبوا لعبة" الرضوخ للأمر الواقع ولا لعبة الانسحاب من المؤتمر والجلسات. ونبّهوا الى أنه خير للمؤتمر ان تمنعه ادارته من الحضور من ان يتولى الزغرتاويون ذلك.

قال لي جبران عريجي[1]: "كنت أعرف الآباتي بولس نعمان بالسمع. واقعه نسّاني السمع. لاحظت أنه مناور وطويل الباع ويتحكم ببرنامج المؤتمر إن لم يكن بمصيره. وأنه يحصر محبته المسيحية بدائرة جبّته ولا يخفي كرهه الفلسطينيين.

"تَنوّعُ انتماءاتنا الحزبية والعائلية زادنا تصميماً على أن نرغمهم على الالتزام بتعهدهم. وعندما ظهر أمين الجميل وجدتُ أن الاسلوب الأسلم أن أعالج المسألة مع صاحب الباع الطويل، فبادرت الى الاجتماع بالآباتي بولس نعمان، وبسرعة انتبهت أنه يفاوض على خلفية الوصول الى الرئيس فرنجية واستعادة حظوة مفقودة لديه".

وامتدت جولة المفاوضات. وبينما كان الآباتي يتبرأ من وعد منع أمين الجميل من حضور المؤتمر، لأنه ليس هو الذي

١ – الاستاذ جبران عريجي هو اليوم رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي.

قطعه للرئيس فرنجية، كان جبران عريجي يمنّيه بأن يسعى لدى الرئيس فرنجية من أجل أن يستقبله. "سأراجع الرئيس مرة واثنتين وثلاثاً وأربعاً، شرط ان تمنع أمين الجميل من دخول قاعة المؤتمر. واذا نجحت في ذلك تصبح طريق زغرتا معبدة أمامك".

قال الآباتي نعمان بابتسامة عريضة: "اطمئن، أنا بمون. لي عليه وعلى أخيه الكثير. لا يكن لك فكر من هذه الناحية. إلا أنني سأصطحبه الى العشاء".

لم يقبل الزغرتاويون "لأن العشاء الختامي يساوي المؤتمر كله بأهميته". وفهم الآباتي أن زيارة زغرتا تستحق التضحية، فوافق على ألا يحضر أمين الجميل العشاء الى مائدته، ولا الى مائدة غيره.

وقال جبران عريجي: "هكذا أنقذنا المؤتمر الماروني في نيويورك من تسييسه لمصلحة الكتائب. ولا يسعني إلا أن أقارن بين الأمس واليوم. حين سمعت الوزير سليمان فرنجية يعلّق على مقررات المؤتمر الماروني في لوس انجلوس ظننت أنني أسمع الرئيس سليمان فرنجية يعلّق على المؤتمرات ذات اللون الواحد. مع التذكير بأن الرئيس فرنجية دُعي إلى أن يرسل ممثلين عنه لحضور المؤتمر في حين أن الوزير فرنجية لم توجّه اليه مثل تلك الدعوة. وهذا مؤشر الى تراجع الممارسة المارونية الديمقراطية."

"وفي كل مرة يُغيِّب الموارنة إخوتهم الزغرتاويين عن اجتماعاتهم ومقرراتهم يرتكبون خطأين ولا يتعلمون. مع أن البطريرك صفير هو صاحب الحكمة التي ذهبت مثلاً: "الرجال ثلاثة: أحمق لا يتعلم من غلطه ولا من غلط غيره. وعاقل يتعلم من غلطته. وحكيم يتعلم من غلط غيره".

زرت الرئيس فرنجية غداة وصولي من باريس في ١٨ حزيران ١٩٨٢، في عزّ الاجتياح الإسرائيلي. على غير عادته، كان في الطابق الأرضي في الصالون الفسيح، وليس في مكتبه في الطابق الأول. وكان الصالون يغصّ بالناس وشيئاً فشيئاً، أخذوا ينسحبون عند اقتراب ساعة الغداء كي لا يستبقيهم.

وحين صرنا وحدنا سألني: "ماذا جئت تفعل، يا خواجه؟" قلت: "جئت أطرد إسرائيل: "ضحك وقال: "وقّف بالصّف". سألته: "هل تعتقد، يا فخامة الرئيس، أن الفلسطينيين سيغادرون؟" قال: "لا أعتقد. لن يعثروا على بيروت أخرى. لن يعاملهم أحد كما عاملهم اللبنانيون. بالعكس، سيأخذون حذرهم منهم، أينما رحلوا، وسيفرضون عليهم الإقامة شبه الجبرية، في مناطق وأحياء محددة، ويرصدون تحركاتهم. صارت بيروت عبرة... وذهابهم سيشكل هزيمة، لأنهم لم يحققوا أي هدف من أهداف الثورة حتى النصر". وصمت الرئيس فرنجية لحظة، ثم سألني: "وأنت، شو بتقول؟"

قلت: "أقول كما تقول فخامتك، لن يغادروا. ولكنهم سيتعرضون لضغوط قوية. وستدفع بيروت الثمن". مال الرئيس فرنجية علي وقال: "لن يغادروا. وأتمنى ألا يغادروا". قلت

باستغراب: "لماذا، يا فخامة الرئيس؟" قال: "إذا غادر الفدائيون، ماذا تعمل باللاجئين؟" قلت: "طول عمرهم كانوا عندنا. ما العلاقة؟"

حدّق فيّ ثم قال: "كم ستبقى هنا؟" قلت: "إلى حين طرد إسرائيل". قال: "فإذن مشوارك طويل. إحكِ مع روبير واستلم الإذاعة. وبانتظار أن تطرد الإسرائيليين، ركّز على السوريين. كل الدعم والتأييد للموقف السوري وللرئيس الأسد".

كان الوجود الفلسطيني في لبنان، بكل مظاهره: الثقافية، والإعلامية، والتربوية والاقتصادية والمسلحة والديموغرافية هاجساً من هواجس سليمان فرنجية. أدركَ باكراً، قبل الحرب اللبنانية بكثير، وربما قبل أن يخرج من الظل ويقتحم الساحة السياسية، أن وجود اللاجئين مشكلة كبيرة ولكن لا بدّ منها. لأنه لا يمكن ردّها ولا إيجاد حلّ لها. لأنها ظلم فادح يلحق بشعب شقيق دون ذنب ارتكبه، ولأنها تشكّل خطراً على لبنان.

عرف سليمان فرنجية من زمان أن الظلم لن يرفع وأن لبنان ليست عنده القدرة على إعادة اللاجئين إلى وطنهم. وبالتالي، يجب عليه أن يبتكر صيغة غير موجودة حتى الآن للتعايش مع هذه المشكلة. وربما اقتنع في أعماقه أنه لا يوجد حل: لا إسرائيل تقبل

أن تسترجعهم. ولا يقدر لبنان على أن يوطّنهم. ما العمل؟ انطلاق العمل الفدائي حرّك المشكلة. وبرأيه أنه يجب إثارتها في كل مرة يتعلق الأمر بالفدائيين.

وحين اجتاحت إسرائيل لبنان في حزيران ١٩٨٢، وبدأ أريل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك يتكلم عن ترحيل الفدائيين وتحطيم قواعدهم أدرك الرئيس فرنجية أن الخطر لم يعد وهمياً ولا مؤجلاً.

أعتقد أنه كان أول من ربط بين ترحيل الفدائيين وتوطين اللاجئين. برأيي، أنه كان أول سياسي لبناني كبير رفض السهولة، وأبى أن يرى في الفدائيين مجرد خطر على لبنان. كان يعرف أنهم شكّلوا خطراً حقيقياً على أمن الدولة واستقرارها. لمس لمس اليد أنهم "غير معقولين وغير محمولين" عندما كان في السلطة، وسجّل أن فريقاً منهم، وربما الأكبر عدداً، حوّل هدفه من تحرير ولو شبر أرض من فلسطين، إلى احتلال قسم من لبنان وإقامة أمر واقع من نوع ما، بزعم أن يكون نقطة الانطلاق لتحرير فلسطين.

في حديثي مع الرئيس فرنجية، في ١٨ حزيران ١٩٨٢، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها ربطاً مباشراً بين ترحيل الفدائيين وتوطين اللاجئين. برأيي، أنه كان أول من ميّز بين خطرين: خطر مطلق وخطر نسبي. وكان مستعداً أن يجازف

بركوب الخطر النسبي على أمل إبعاد الخطر المطلق. وكان واعياً أن ركوب تلك المغامرة ليس بالأمر السهل، لأن الخطر المزعوم نسبياً كان مرّاً وصعب الاحتمال على بلد مثل لبنان، ليست عنده المناعة الكافية ولا القدرات لدرء الخطر النسبي فكيف بالخطر المطلق؟

"الدولة داخل الدولة" التي أقامها الفلسطينيون في لبنان، بكل مظاهر وجودهم وليس بالوجود المسلح وحسب، كانت مشكلة سياسية وأمنية واجتماعية. أما توطين اللاجئين فقضية وجودية، مسألة تهدد الصيغة والكيان. ترحيل الفدائيين كان يشكل حلاً للمشكلة السياسية والأمنية، لكنه يزيد من تعقيد أو تثبيت مشكلة اللاجئين. لذلك، "خاف" الرئيس فرنجية من ترحيلهم.

وباعتقادي أن الرئيس فرنجية كان واعياً أن هذه المعادلة: ترحيل الفدائيين يساوي توطين اللاجئين، عسيرة الفهم والهضم، صعبة الشرح والتفسير فلم يكن يحكي عنها كثيراً.

وأسارع إلى القول، منعاً لكل التباس أو سوء فهم، إن هذه المعادلة أو النظرية لم يُدلِ الرئيس فرنجية إليّ بها في تصريح معد سلفاً، ولم يشرحها في سياق حديث واحد متتابع ومتسلسل. كلا! إنها مجرد استنتاج شخصي واستقراء ذاتي لمجموعة من

الملاحظات والآراء والتلميحات والتعليقات، أخذتها من فم الرئيس فرنجية وجمعتها وأمعنت التأمل فيها. ووجدت أنها تشكّل نواة فكرة أو نظرية جديرة بالاهتمام. لا سيما وأن الأحداث التي تلت الاجتياح الإسرائيلي تميل إلى تأكيد صوابيتها، فرأيت أن أبسط واجبات الأمانة والوفاء أن أسجّلها وأنسبها إلى صاحبها.

في بداية الاجتياح، أصدر الرئيس فرنجية بياناً يعلن فيه أنه يضع امكاناته بتصرف الدولة لمقاومة العدوان الاسرائيلي. وفي ندوته الصحافية الاسبوعية بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٨٢، أجاب على سؤال عن مقاومة الاجتياح الاسرائيلي: "قلنا لكم حين وضعنا أنفسنا في تصرف الرئيس إن هذا التصرف جاء طبيعياً حيث ان عند رئيس الدولة المعطيات التي لا تتوافر لدى كل الشعب، ونحن منه. وكل ما حصل بعد هذه المبادرة هو اتصال من رئيس الجمهورية ومن رئيس الحكومة يشكران مبادرتنا هذه. تسألني ماذا قررت للخروج من هذا المأزق الذي يعيشه لبنان اليوم؟ الانسان لا يعطي الا ما يملك. ان ندعي ان في امكاننا الدفاع عن كل لبنان فهذا غير وارد لدينا. ولكن ان ندافع عن الشمال فهذا قرار متخذ من وقت طويل بالاشتراك مع جميع الفعاليات الشمالية. ولا نتمنى أن ياتي ظرف للقيام بهذا الواجب ولكن إذا كان هذا قدرنا

فأبناء الشمال بعونه تعالى سيُلقّنون المعتدي درساً."[1]

بهذا الموقف، يؤكد الرئيس فرنجية مبدأً ثابتاً عنده، ويعطي فكرة عن مفهومه للحياة: المقاومة ورفض الاستسلام، أياً كانت النتائج. في هذا القول البسيط فلسفة حياة بكاملها: يتمنى ألا يقع المحظور، ولا يجهل أبداً أنه أضعف من أن ينتصر أو أن يرد الضربة، لكنه لن يستسلم، ومقرر أن يموت واقفاً، مثل شجر السنديان في باحات كنائسنا القديمة. لا يخفي أبداً أنه أعجز من أن يدافع عن لبنان. ولا يتردد في اعلان أمنيته بألا يأتي ظرف للقيام بهذا الواجب، ولكن "اذا كان هذا قدرنا فأبناء الشمال، بعونه تعالى، سيُلقّنون المعتدي درساً."

وفي هذا السياق، يجدر التذكير بأن الرئيس فرنجية كان بين أسرع القياديين اللبنانيين الى تأييد عمليات المقاومة اللبنانية. وكان يحرص على توجيه تحية حارة، في ندوته الصحافية الاسبوعية، للتضحيات التي تقدمها المقاومة ويسجّل الخسائر التي تكبّدها العدو. كما انه لم يُخفِ تحفظاته حيال "أسلمة" المقاومة، بعد ما كانت في بداية انطلاقها، وطنية.

١- (جريدة السفير، الاربعاء ٢٣/٦/١٩٨٢، الصفحة٣).

الخطر على المدى البعيد لم يمنعه من رؤية الخطر المداهم.

عندما انتهى ياسر عرفات بالرحيل مع خمسة آلاف فدائي، وسط ذلك "المهرجان" العاطفي، وتفرّقوا أيدي سبا، أخذ عدد من المرحّلين يعود إلى سوريا أولاً، ومنها يعبر إلى لبنان.

كان تنظيم المردة عنده جهاز جيد لرصد المعلومات وجمعها. وتوفّرت لدى هذا الجهاز مؤشرات ومعلومات عن احتمال قيام المسلحين الفلسطينيين العائدين بمهاجمة "المساكن الشعبية" واحتلالها والإقامة فيها. وتقع هذه المساكن في منطقة مجدليا، أي في منتصف الطريق بين زغرتا وطرابلس.

لم يسمع الرئيس فرنجية الخبر مرّتين، وفي ليلة ليس فيها ضوء قمر، أرسل الجرافات بقيادة وحراسة عناصر من المردة، وفي ساعات قليلة هدرت على الطريق بين طرابلس وزغرتا ودمّرت المساكن الشعبية كلها.

وصلت الرسالة بأسرع من المتوقع، وحين لم تتحرك طرابلس أدرك الفلسطينيون أنهم خسروا حليفين. ورأى طرابلسيون في هذه العملية حكمة وبعد نظر لأنها أزالت سبباً من أسباب التوتر في المستقبل بين طرابلس وزغرتا والمخيمات.

قال لي روبير بيك: "بعد غد الثلاثاء، عندي موعد مع عبد الحليم خدام في دمشق، ترافقني؟" قلت: "إلى جهنم الحمراء." قال: "ننطلق غداً حوالي العاشرة."

وانطلقنا في سيارة كاديلاك سوداء. لا حواجز ولا حدود. سحبة واحدة من باب القصر في زغرتا الى باب فندق الميريديان. رحلة، مريحة، ممتعة، وصحبة راقية.

كانوا في انتظاره. ضجّت قاعة الميريديان الفسيحة حين فتحوا له الباب ودخل بوجهه الصبوح وشبوبيته وأناقته ورشاقته. وقف معظم الذين كانوا في "الهول"، ألقى تحية دائرية وتوجّه نحو المصعد. لحق به كثيرون للسلام عليه، سلّم بمودة صادقة، وحين جاء المصعد اعتذر ودخله بابتسامة عريضة، علامة الرضا عن هذا الاستقبال العفوي والخفيف.

ما كاد يستقر في شقته حتى بدأ يرسل سلال الزهر، ويتلقى الدعوات الى الغداء والعشاء والترويقة. لم يقبل سوى دعوة واحدة: إلى مائدة العماد مصطفى طلاس.

كان الحديث عائلياً على مائدة العماد طلاس وسياسياً

وعسكرياً. وكان ودياً ومفيداً في اليوم التالي مع الوزير خدام. ثمّن الوزير خدام موقف الرئيس فرنجية من الاجتياح الاسرائيلي. مع أن المفاوضات كانت لا تزال في بداياتها، لم يستبعد أن يرضخ ياسر عرفات للضغوط ويغادر لبنان. اعتبر ترشيح بشير الجميل لرئاسة الجمهورية غلطة، وان هذا الترشيح غير مقبول. كرّر أن الرئيس فرنجية هو خير من يقرأ الوضع ويحسن تحليله. فاذا قرّر أن يترشّح فسندعمه بكل قوانا، وإذا فضّل الاعتكاف فنحن معه.

كان روبير بيك مرتاحاً لنتيجة اللقاء. قال لي ونحن نغادر مبنى وزارة الخارجية السورية: "تعرف ما معنى هذا الكلام؟" قلت: "أستطيع أن أخمّن." قال: "يعني أن يترشح الرئيس وأن لديه حظاً بالفوز."

كنا لا نزال في نهاية حزيران، ولم يكن بشير الجميل الدمقراطي بالدم قد بدأ يحجر على النواب المقيمين في المنطقة الشرقية ويمنعهم من مغادرتها.

بعد ظهر الثلاثاء ركبنا وعدنا. في اليوم التالي، ذهبت لزيارة الرئيس. رحّب وأضاف: "يا خواجه، سجّل نقطة سوداء." استغربت. قال: "لم تحضر الندوة الصحافية الاسبوعية."

زغرتا – الألمان لا يصدقون اننا سنقاوم.

وصلت إلينا سيارة عمومية فيها فريق تلفزيوني ألماني. رحّبت بهم أجمل ترحيب. بيروت تحت القصف والحصار ويقصدنا فريق تلفزيوني كامل؟ سألتهم كيف تركوا بيروت؟ قال الزميل بتأثر واضح: "جحيم! جحيم حقيقي." قلت: "تعشينا وسهرنا أمس في أيطو، وسأدلّك على أيطو إذا مررنا بها اليوم. حوالي الساعة الحادية عشرة، سمعنا هديراً عميقاً متواصلاً آتياً من بعيد، ونحن على بعد زهاء ستين كيلومتراً في خط مستقيم. قال: "لا استبعد." وقمنا.

لَبّيتُ جميع مطاليبهم، ومكّنتهم من تصوير انتشار القوات السورية على مشارف طرابلس، ومن "التسلّل" الى داخل ثكنة سورية في مجدليا، وتصوير حواجز المردة وأحد مرابض المدفعية.

رقص رئيس الفريق فرحاً، وأراد مكافأتي على هذا "الضرب الصحافي" فوعدني بأن يرسل نسخة عن الفيلم بعد بثّه، وعرض عليّ أن يجري معي حواراً عن الوضع الراهن في ظل الاجتياح، وعن انتخابات رئاسة الجمهورية. قلت له: "عندك رئيس جمهورية مستعد أن يجيبك على كل أسئلتك وتسألني أنا؟ قمْ بنا الى إهدن." وصعدنا.

رحّب الرئيس فرنجية بدوره وخضع لجميع طلباتهم التقنية وتخلّى لهم عن مكتبه ليركِّزوا الاضاءة والصوت، فقام ورافقته خطوتين على الشرفة المطلة على ذراع الوادي المقدس الذي فيه دير مار أنطونيوس قزحيا. قلت له إنهم وعدوني بنسخة عن الفيلم. ابتسم بسخرية من سذاجتي: "كلهم يعدون بالأفلام والصور والتسجيلات. وحتى الآن لم يصلنا شيء." وأضاف: "ما رأيك بهم؟" قلت إني لا أعرفهم، لكن عملهم واهتماماتهم وأسئلتهم تدل على أنهم مهنيون. وقد ارتاحوا لنا كثيراً لأننا سهّلنا لهم تصوير الثكنة السورية في مجدليا، في أثناء قيام الجنود بتدريبات عسكرية ورياضية. قالوا لي إنهم ما كانوا يحلمون يوماً بأن يتمكنوا من ذلك. قال: "واسطتك قوية!" قلت: "اذا كنت بحاجة إلى شيء، فنحن في الخدمة. أحكي لك كلمتين مع روبير بيك لأنه هو الذي تدخل." وتقدم الزميل الألماني وقال له: "سيدي الرئيس.. ساعة تشاء". وشاء السيد الرئيس فوراً.

مما قاله لهم : لا أتوقع أن تتقدم إسرائيل نحو الشمال، وإذا فعلت، سنلقنها درساً لن تنساه. حاول الصحافي أن يناقشه فلم يأخذ منه أكثر من الدرس القاسي. وعن ياسر عرفات والفلسطينيين قال إنه كان يتوقع، في بداية الاجتياح، أن لا يدخل الفلسطينيون في مفاوضات لمغادرة لبنان. أما اليوم فلم يعد واثقاً. وإنه لا يتفاعل بفيليب حبيب ولا بالولايات المتحدة عموماً ولا

بياسر عرفات.

وانتقل الصحافي إلى انتخابات رئاسة الجمهورية فقال له إنه يعتقد أنها ليست مستعجلة، وإن رئيس المجلس النيابي كامل الأسعد رجل مجرّب ويعرف كيف يتصرف بما فيه مصلحة الوطن. وعما يخصّه شخصياً، قال إنه لم يحسم أمره بعد.

عاد الصحافي الالماني إلى الاجتياح وقال: "إذا لم تأت اسرائيل إلى الشمال فإن بشير الجميل مصمّم على أن يأتي". ردّ الرئيس بسؤال: "هو قال لك هذا الكلام؟" أجاب الصحافي: "كلا. مقرّبون منه قالوا لنا لا بدّ من الذهاب إلى الشمال، ومن طلعة ثانية إلى إهدن."

قال الرئيس فرنجية بارتياح: "هذا اعتراف منهم بفشل الطلعة الأولى. أهلاً وسهلاً بهم. هذه المرة، نحن بانتظارهم."

طبعاً، استبقى الرئيس الجميع على الغداء. وبالانتظار جرّني الصحافي إلى الشرفة مبدياً اعجابه بالمنظر الأخّاذ، وشكوكه بموقف الرئيس من احتمال توجّه اسرائيل الى الشمال. وأصرّ على السؤال: "سيقاوم فعلاً؟ ستقاتلون إسرائيل؟ وهل هو مقتنع بأنه سيلقّن إسرائيل درساً قاسياً؟ مع أنه رجل عاقل وحكيم ومعتدل؟" قلت: "الرئيس ليس مغشوشاً بنتيجة الدرس، لكنه مصمم فعلاً على اعطائه. نعم، سنقاتل. لن تكون رحلتهم إلى الشمال نزهة."

انشغل بال الصحافي الألماني علينا: "كم يبلغ عددكم؟ ما هو نوع السلاح الذي في أيديكم؟" قلت: "لا العدد ولا السلاح مهم..." قاطعني: "لا تقل لي إن الشجاعة والكرامة ومعرفتكم طبيعة الأرض..." قاطعته: "هذا بالضبط ما كنت سأقوله لك."

لا بد أنني كنت مقتنعاً ومقنعاً إلى درجة أقنعت الزميل، فقال: "ولكنكم مجانين. هل أنتم مجانين؟" قلت: "هذا ما يقوله لنا أصدقاء نحبهم ونثق بأحكامهم." قال: "وأنت، ماذا جئت تفعل هنا؟" قلت: "وكيف تريدني أن أثبت جنوني إن لم يكن بانضمامي إلى جوقة المجانين، في عزّ اشتداد نوبة الجنون؟ مجانين ونحب هذه الارض، وحريصون على كرامتها وعلى كرامتنا. وكيف تكون كريماً إذا تخلّيت عنها ساعة حاجتها اليك؟"

أعتقد أنني فقدت كثيراً من الاعتبار الذي أحاطني به منذ مكّنته من تصوير الثكنة السورية. شعرت أنني سقطت من عينه. وصَمَت حائراً.

دُعينا إلى الغداء فدخلنا ووقف الرئيس فرنجية وترك ضيوفه يتقدمونه على الدرج إلى الطابق الأرضي حيث تمتد طاولة كبيرة زاخرة. عند مصطبة الدرج، لمح رجلاً واقفاً قرب الطاولة. شدّني

من كمي وقال بفرح طفولي: "الأسمر هنا، يعني فيه كبة نية".[١] وبالفعل، جاء "جاط" كبير من الكبة النية يغذّي شركة تلفزيون ألمانية بكاملها.

وألقى الرئيس نظرة دائرية حوله، ليتأكد من أن كل شيء في مكانه، كما يفعل أي رب بيت، فأبصر شاباً جالساً على كرسي بالقرب من الباب الخارجي. ناداه: "مين انت، يا ابني؟ شو عمتعمل هون؟" أجاب الشاب: "أنا شوفير الألمان".

– وشو باك قاعد وحدك. تفضل يا ابني، تعا تغدى معنا.

حاول الشاب أن يعتذر ويشكر. قاطعه الرئيس بلهجة أبوية: "قوم، يا ابني، قوم". فقام الشاب، وصبّ له الرئيس فرنجية كأس عرق، وتناوله الشاب ورفعه، قائلاً: "بصحتك، فخامة الرئيس، الله يطوّل بعمرك."

– صحتان!

لا أعرف لهجة "الريبورتاج" الذي بثه التلفزيون الألماني عنا، لأنهم لم يرسلوا لنا النسخة التي وعدونا بها. لكنني أحب أن أتصوّر أنه كان لتهديد الرئيس فرنجية تأثير على وزير الدفاع

١–هو يوسف غالب الملقب "الاسمر" لسمرة لطيفة في وجهه، وكان صاحب مطعم شهير على نبع مار سركيس في إهدن اسمه: مطعم الأسمر. ولا يزال المطعم موجوداً ويحمل الاسم ذاته برغم انتقال ملكيته .

الاسرائيلي أريل شارون وعلى قراره بعدم التوجه إلى الشمال.

اختليت بشوفير الألمان وسألته عن أجرة الطلب من بيروت إلى إهدن وناولته ضعف المبلغ. حاول أن يرفض: "تكفي دعوة فخامة الرئيس إلى الغداء إلى مائدته. هذه بألف طلبية!"

– صحيح . وفي كل مرة تأتي بفريق صحافي إلى هنا لك ضعف هذا المبلغ.

جاءنا بثلاث طلبات. لا هو ندم ولا هم أسفوا على هدر الوقت.

إهدن – القصر – الرئيس مرتاح لكامل الأسعد

ودَّعتُ الألمان وعدتُ مسرعاً الى مكتب الرئيس قبل أن يدخل ليرتاح. قلت: "الهيئة، يا فخامة الرئيس، أنك مرتاح لانتخابات رئاسة الجمهورية؟" قال بثقة واطمئنان: "مرتاح، لأن اللعبة بيد كامل الأسعد. اتصل بي وقال لي إنه سيذهب قريباً إلى دمشق وينسّق معهم. ولدى عودته يتصل بي، إن لم يتمكّن من زيارة إهدن".

ذكّرته بتصريح إسحاق شامير، وزير خارجية إسرائيل، في باريس. قال: "أي تصريح؟" قلت: "أعلن فيه بصراحة، ومن قصر الأليزيه بالذات أن أحد أهداف الاجتياح انتخاب رئيس صديق وإقامة نظام حليف مع إسرائيل في بيروت، يعجّل بتوقيع السلام معها." قال لي: "لن يمشي كامل الأسعد في هذا المشروع. وأنا أيضاً طلبت موعداً من الرئيس الأسد، وقريباً أذهب الى دمشق."

وذهب الرئيس كامل الأسعد إلى دمشق وعاد دون أن يزور إهدن ودون أن يتصل بالرئيس فرنجية. ولم يذهب الرئيس فرنجية إلى دمشق قبل الانتخابات. وعقد المجلس النيابي جلسة الانتخاب في ثكنة الفياضية. وانتظر كامل الاسعد ساعتين حتى اكتمل النصاب. وانتخب المجلس بشير الجميل رئيساً للجمهورية.

لم أحضر جلسة انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية مع الرئيس فرنجية. حضرتها مع عدد من عناصر المردة في الثكنة. منظر النواب الذين وعدوا الرئيس فرنجية بالامتناع عن حضور الجلسة كان غير مثير للحماس والفخر. وانتظار كامل الأسعد اكثر من ساعتين كي يكتمل نصاب الثلثين الضروري لقانونية الجلسة وشرعية الانتخاب كان مفاجئاً ومثيراً للشفقة.

قلت للحاضرين بلهجة المطلع الواثق إن النصاب لن يكتمل وبالتالي فالانتخاب لن يحصل، واحتفظت لنفسي باعتقاد أن الرئيس فرنجية لم يترشح لعلمه أنها لن تنعقد. وصدّقوني. كانوا يتوهّمون أني أسبح بين أسرار الآلهة.

لماذا اتصل الرئيس الأسعد بالرئيس فرنجية عند افتتاح المعركة الرئاسية؟ وإلامَ طمأنه؟ وهل كان التنسيق مع دمشق على عقد الجلسة؟ ولماذا لم يعد إلى الاتصال بالرئيس فرنجية ليطلعه على تفاصيل التنسيق؟ ولماذا لم يزر الرئيس فرنجية دمشق قبل الانتخابات؟ أسئلة لم أجد لها أجوبة.

عندما اكتمل النصاب وانتخبوا دورتين خجلت عنهم واعتذرت من أصدقائي وخرجت، وعندي شعور عظيم بالقرف...

وما تمنّيتها لكامل الأسعد... الآن، وأنا أكتب عن "حادث التاريخ" هذا بعد انقضاء عشرين عاماً، أشعر بالخجل ذاته وأستعير من علياء الصلح صرختها المدوية: "يا عيب الشوم!"[1] الوصف تلك الجلسة. ولا أستطيع أن أمتنع عن مقارنة مجلس الاستقلال بمجلس الانحلال. كان عندك فحول، تهبّ وتثور. صار عندك عجول تخور وتمور.

لم أحضر مجلس الرئيس فرنجية ساعة إعلان انتخاب بشير الجميل رئيساً. كان بوسعي أن أتصوّر حالته وكيف تلقى الضربة. لأنها ضربة بكل المقاييس.

حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر، وقفت سيارة جيب للمردة أمام الباب، وترجّل مسؤول وقال: "روبير بيك يريدك فوراً." قلت: "خير، انشالله؟" قال: "لا أعرف. لكنه مستعجل جداً. تفضّل معنا."

في تلك الأيام، كان المرء يعلم أنه ذاهب إلى الثكنة ولا يعرف من أين يعود. فأخذت سيارتي.

كان لاستعجاله مبرر. حين سمع وقع أقدامي، نهض من

---

١ – يا عيب الشوم!"، عنوان افتتاحية جريدة النهار يوم الثلاثاء ١٤ ايار ٢٠٠٢ "تبهدل" فيها علياء الصلح أهل الحكم لاختلافهم على تقاسم الملايين من الدولارات، بينما البلد مهدد بالانهيار الاقتصادي والناس الأوادم مهددون بالجوع .

خلف مكتبه قبل أن يراني وأخذ بيدي عند الباب وقال: "كلنا مُخَوْزَقين وما عندنا وقت للانفعال والاسترسال في التحليل أو العتاب أو التساؤل. عجّل. أريد جواباً بكلمة واحدة: هل تستطيع – هل نقدر أن نعمل نشرة أخبار تلفزيونية ونبثّها الليلة؟

– شووووووووووو؟

قال: "سمعتني جيداً. وأريد جواباً سريعاً. بيي ناطر وهو كما يمكنك أن تتصوره."

– ومن يُقدّمها؟

– لطيفة... تعرفها من الاذاعة. وقالوا لي إنك تقدّر مواهبها.

– ومن يُصوّر وبماذا؟

– عثرنا على كاميرا فيديو للهواة.

– ومن أين وكيف تبث؟

– محطة الترحيل (Relais) في الكورة تحت سيطرتنا. نقطع ارسال تلفزيون لبنان من بيروت، ونضع الكاسيت VHS بنشرة الأخبار ونبث فنغطي الشمال. قل لي: نعم أم لا؟

– أعطني خمس دقائق.

– ولا نصف دقيقة.

قلت: اعتبرها صارت، إذا كان هذا ما تريده. قلتها وأنا أضحك على حالي وأسخر من ترددي ومن استفظاعي الأمر: كل شيء استثنائي. كل شيء شاذ. كل شيء لعب أولاد وهواة. كل

شيء غلط. "وقفت" على نشرة أخبار تلفزيونية مرتجلة؟ وبالمبدأ، أنا مع كل حركة أو كلمة أو موقف يعلن أننا ضد كل الذي صار ويقول بالصوت الصارخ إننا سنقاوم الذي صار. ولن نرضخ لإيديولوجية التوسّع والاحتلال وفلسفة القوّة والطغيان وسياسة الأمر الواقع الإسرائيلية، ونحتقر ونتحمّل مسؤولية احتقارنا الفجور والفحش والبطش بسيف أريل شارون. إن عين سليمان فرنجية تقاوم المخرز المحلي والمدفع القواتي والطائرة الإسرائيلية. لا هو مغشوش بالنتيجة ولا نحن أحسن منه ولا أفضل من الذين راحوا. على القليلة، لا يتفلسف ولا يُنَظِّر ولا يصدر الأوامر من بعيد. يقرر ويتحمل نتائج قراراته. وأبناؤه وأحفاده على الجبهة وفي بوز المدفع وخسارته أفدح الخسائر.

بعد هذا الفاصل الرومنطيقي الداخلي، قلت له: "ليس المطلوب منا أن ننافس تلفزيون لبنان؟ ولا حتى البي.بي.سي BBC؟" قال: "لولا هذه الغلاظات كنت غير محمول!"

وصلنا إلى مبنى الإذاعة. كانت لطيفة مع الست لميا التي عملت لها ماكياج بسيطاً ولكنه فعّال. خرجت من بين يديها بوجه صاف وناعم. قلت لها: "لطيفة... اسم على مسمى. رافقيني ولا تبتعدي عني. رجلي ورجلك".

أعطيتُ بعض التعليمات بالنسبة للاستوديو، قارناً كل عبارة

باسم النجمة العتيدة: "هنا تجلس لطيفة... هنا تُركّز الكاميرا التي ستصوّر لطيفة... لا يبقَ أحد في حقل نظر لطيفة... تكون الكاميرا أدنى بشعرة من مستوى عيني لطيفة... " جعلت منها صرّة بطن الدنيا. وهي تضحك وتخجل بعفوية وفرح. وقبل أن أنعزل في المكتب لصياغة النشرة، قلت "للمصوّر" أن يصوّر الصفحات الأولى من الصحف. قال أنه سجّل جلسة الانتخاب. فقلت: "ممتاز! سننافس فعلاً تلفزيون لبنان ببضاعته. إختر منها أوضح المشاهد وحضّرها، ما بعرف كيف، كي نستعملها بعد قليل. دبّر حالك".

نشرة الليلة فيها خبر واحد: "جلسة تعيين بشير الجميل في ظل الدبابات الإسرائيلية"، كما سماها الرئيس فرنجية. كتبتُ عشرين دقيقة، واستدعيتُ لطيفة وبدأت عملية شحن نفساني، وأنا أتساءل إذا كنت أحاول إقناعها أو إقناع نفسي. قلت لها إنها هي النشرة، الليلة: بصورتها، بصوتها، بنعومتها.

"خبر الليلة أن تقولي: "هنا إهدن. أنا لطيفة، أتحدث إليكم من إهدن. هنا تلفزيون لبنان الحر الموحّد من إهدن. وكل ما عدا ذلك تفاصيل. الليلة، نسجّل موقفاً. غداً، نعمل إعلاماً. المهم، الليلة، أن يعرف الناس أننا لن نمشي. إغلطي كيفما شئتِ ولكن لا تتوقفي، وظلّي واقفة وصوتك قوياً".

وظلّت لطيفة تبتسم وتوافق إلى أن أخذت النشرة بيدها...

وقرأناها معاً. وإلى الستوديو.

طلبت من روبير بيك أن يطلب من الجميع أن يخرجوا من حقل نظر لطيفة وهي تسجّل النشرة. وأعطى روبير بيك المثل.

وبقيت لطيفة في مواجهة الكاميرا. وعندما أعطاها المصوّر الاشارة، ابتسمت ووجّهت تحية مسائية حارة إلى المشاهدين بصوت واثق وأعلنت أن تلفزيون لبنان الحر المستقل من إهدن يبدأ بثّ نشراته الأخبارية، في موقف مبدئي لمقاومة ما حصل اليوم. وتابعت لطيفة النشرة بثقة تذهب متناقصة بنسبة تصاعد التركيز والتعب والتعصيب.

طبعاً، غلطت لطيفة بالمبتدأ والخبر، بالفاعل والمفعول به. لكن الوطن كله كان مهدداً بأن يذهب في خبر كان، وأن يصبح مفعولاً به حيث يجب أن يكون فاعلاً. ولم تعد القصة واقفة على غلطة نحوية ترتكبها لطيفة.

هكذا، وُلد تلفزيون لبنان الحر الموحد من إهدن.

في اليوم التالي، كانت الست لميا راضية ففهمنا أن الرئيس فرنجية كان مرتاحاً للنشرة وأنه يدعونا إلى الغداء في إهدن. تحجّجتُ بضرورة ترتيب الاستوديو وتحضير عناصر النشرة. وتناولت لطيفة الغداء إلى مائدة الرئيس. قالت لي: "عَبَطني

وبوّسني وهنّأني وتغزّل فيّ، (ضحكتْ واحمرّتْ) وبعدين سألني: وين الخواجه إبن فرشخ؟ فأجابته الست لميا: يجب أن يرتب الستوديو ويكتب النشرة".

كنّا بالخواجه وبنقطة سوداء. بابن فرشخ صرنا في بحيرة من الحبر الصيني.

في تلك الدراما الوطنية والشخصية التي غرقنا وغرق فيها لبنان، صارت نشرة أخبار التلفزيون لعبة روبير بيك المفضلة.

إهدن – كنيسة مار سمعان وقائد الجوقة

وجاء الأول من أيلول، ذكرى ميلاد طوني بيك. منذ استشهاده، والعائلة تقيم قداساً لراحة نفسه وأنفس شهداء إهدن، في هذا اليوم من كل سنة، في كنيسة مار سمعان الواقعة في حي بيت فرنجية بإهدن. ومار سمعان كنيسة صغيرة ومتواضعة، ويواجه المذبح من الجهة المقابلة تتخيتة او شرفة داخلية لا تتسع لأكثر من عشرة أشخاص. في ذلك القداس، "تسلّل" إلى الشرفة جوقة مرتلين وقائد جوقة يقول لفون كاريان "قم لأقعد محلك". أو بالأحرى: "تم قرير العين، أنا أخذتُ دورك".

بطبيعة الحال، كان لا بدّ من تصوير القداس. وليس عندنا سوى كاميرا واحدة، هي ذاتها للتصوير الداخلي والتصوير الخارجي وتسجيل النشرة. تضرّعت إلى حاملها أن يأخذ حذره خوفاً من أن ننقطع.

صعد إلى إهدن وعاد بالسلامة وبفيلم طويل عن القداس الذي احتفل به الأب يوسف يمين. بدأتُ بمشاهدة الفيلم. كارثة! أعدتُ مشاهدته: كارثتان. استدعيتُ المصوّر وعرضت عليه الفيلم وسألته: "هل ترى شيئاً؟" قال: "لا. ماذا يجب أن أرى؟"

– أن ترى فيلاً، مثلاً. أن ترى بارجة حربية من البوارج في عرض بحر بيروت.

- لماذا تسخر مني يا أستاذ؟

- أنا أسخر منك؟ العوذ بالله. أسخر من نفسي وأعتذر منك. لنستمع إلى عظة الأب يمين...

نظر اليّ بأسى وقال: "هذا ما أعرف أن أعمله" قلت: "الله يعطيك ألف عافية. أحلى ما في الأب يمين صوته، وفي مثل هذه المناسبات يلعلع ويبدّع، وكان مخنوقاً. وكانت الصور الأخرى غير صالحة.

كنت نويت أن أستخدم ربع ساعة من الفيلم. نزلت إلى دقيقتين بصعوبة، وطلبت من سيمون أن يحتفظ بالفيلم بكامله. وثيقة للتاريخ لا تُقدّر بثمن. وفي النشرة، حاولتُ أن أستعيض عن الصور بنصّ عاطفي حميم. واتكلنا على الله.

كانت العادة ألا أصعد إلى الطابق الأول في مبنى الإذاعة دون المرور بالأب يمين في الطابق الأرضي لأخذ بركته وشرب فنجان قهوة. عندما حضرتُ، غداة الفيلم العظيم، كانت "أبوازهم"[1] كلهم مبرومة. حتى الأب يمين لم يستقبلني بمثل ما يستقبلني عادة من الحرارة والمحبة. وكان مكتبه غاصاً بالزميلات اللواتي هرعن إليه ليتذمرن من فعلتي الشنيعة، ولم يقطعن حديثهن عن الفضيحة بوجودي حتى انتهرت إحداهن. وأبدى الأب يمين دهشته مما حصل فقلت له: "ستأتيك الأخبار لأن الست لميا ستفاتحني

١- البوز جمع أبواز: الفم، أفواه، سريانية. الابواز مبرومة دليل السخط وعدم الرضا.

بالموضوع ولا شك".

سبقها صوتها. سمعتها تصرخ من الطابق الأرضي: أين "ابن فرشخ؟" ليسمع كل مَن في المبنى أن ساعة الدينونة قد دقت.

لم أتحرّك من مكتبي وحين وقفت بالباب قالت لي: "تعرف ما هو اسم محطة التلفزيون؟ اسمها "تلفزيون طوني فرنجية". ولا يطلع له خمس دقائق في ذكرى مولده في محطته؟ كثير زعل الرئيس. رفض أن يسهر معنا واعتزل في غرفته ورفض أن يحكي مع أحد".

زعلت كثيراً لزعل الرئيس، وتمنيتُ أن يكون الزعل مناسبة وحافزاً لتحسين تجهيزات التلفزيون.

قاطعتها: "خلصتِ؟" قالت: "لأ، ما خلصت" قلت: "خلّصي وتعالي نشاهد الفيلم، ونعرضه الليلة مرتين. خلّينا نشوف الفيلم". وانتقلنا إلى الستوديو.

- دوِّر يا سيمون!

دوَّر سيمون. وحين تجاوزنا صور الجوقة وقائدها المظفّر ولم تبدر منها حركة، قلتُ: "وقّف يا سيمون وارجع إلى الوراء". رجع.

- دوِّر يا سيمون. دوَّر سيمون. وحين رفع قائد الجوقة يديه إلى السماء لترفع الجوقة ابتهالاتها إلى مار سمعان، شقل الستـرة التي

لا تتجاوز الزنار. قلت:"وقِّف يا سيمون". وقَّف سيمون. قلت: "والآن، ألا تشاهدين شيئاً؟" وحدّقت لميا ملياً، وشهقت: "يبييه... هذا فرد!"

– ومن الجانب الثاني؟

– فردان، ابن الملعونة؟ مين هذا؟

وما انتهى الفيلم "وفون كاريان" زغرتا القرن العشرين لا يتوقف عن رفع يديه إلى السماء، إلا والست لميا، صاحبة الصوت المهدّد والمندّد تتصل بالرئيس وتقول له: "Papa" مليح اللي كان جورج هون. كانت صارت فضيحة. أخبرك بالتفاصيل على الغداء". ثم التفتت إلي وقالت: "كتّر خيرك"...

جورج يمين

طلبتُ من روبير بيك أن يسعفني بزميل من الإذاعة. قال: "مَن تختار؟" قلت: "جورج يمين". قال: "فليكن جورج يمين".

لم أكن أعرفه. وفي اليوم الأول لوصولي إلى الإذاعة، قامت بيننا علاقة غير شكل. نسيتُ الموضوع الذي طلبت منه أن يكتبه، وحين ناولني الورقة قرأت ونظرت إليه وقلت: "هذا شعر!" نظر إليّ بدهشة وقال: "شو بتقصد؟"

– أقصد أنه جميل.

– هم يقولون لي: شعر باستهجان.

– هم، يصطفلوا. ليتني أقدر أن أكتب بهذه اللغة.

لم يكن يلزم أكثر من ذلك لنصبح أصدقاء. وصرنا نجلس ونحكي بالسياسة والأخبار والإعلام. ونحكي أيضاً بالشعر والأدب والغناء. واكتشفت الثقافة والشفافية والوجدان. كان مستعداً دائماً للحب والجمال والرقة. ورأيت الوفاء والإخلاص والصبر على المكاره كيف تكون على الطبيعة.

جورج يمين، صديقي، علّمني معنى الالتزام العائلي في زغرتا. الالتزام الكلي المجاني، الالتزام بشخص وبالقيم التي

يمثلها ويدافع عنها، مقابل لا شيء. اللهم إلا القليل من الاحترام والاهتمام.

جورج يمين، كانت تقتله اللامبالاة. وكان مسكوناً بالحنين إلى أيام لم يعرفها. وكان مغرماً ببشر لم يولدوا . وكان يحب البحر.

وفي يوم ذهبنا إليه من نافذة مكتبي، وألقى فيه قصيدة فهزج الرمل وتراجع الموج، واجتمعت طيور النورس من الجهات الاربع، وأقبلت علينا في قوافل من الألحان والأحلام، وشيّدت على أبياتها أعشاشاً بخيوط من ذهب.

وفي يوم، سألني عن فيرا الحكاية فحدثته عن حكاية الحب. وعن الخفّة والرهافة، عن الأناقة والرشاقة، فنهض وقطف الأعشاش، وعمل منها باقة وردية وعلّق عليها قصيدة وحفرها على بلاطة رخامية في صدره. وخيّم السلام.

في التلفزيون، صار عندنا وقت اكثر للحكي بالشعر والأدب والغناء.

جورج يمين، صديقي، رحل باكراً، قبل أن يستكمل عطاءه في الحب والشعر والأدب والغناء. كان عنده منه مخزون كبير. لكن المرض غدره وتسلّل الى جسمه الناحل. وجورج يمين لا يحب الغدر ولا عشرة الغدارين، فآثر الرحيل.

زغرتا – الواشنطن بوست – ١٨ أيلول ١٩٨٢

رنّ التلفون، وجاء صوت من بعيد: "مرحبا. أنا جوناتان راندال..." قاطعتُه بدهشة: "يا هلا بأهم الصحافيين الأميركيين." قال: "شكرا" ...أعطاني لوسيان جورج رقمك ..." قاطعته بدهشة متزايدة: "يا هلا بك وبلوسيان جورج أعمر." قال: "شكرا" ... أنا هنا لكتابة كتاب عن الحرب اللبنانية، وأتمنى أن أحصل على موعد مع الرئيس فرنجية بعد غد. هل تعتقد أن هذا ممكن؟" قلت: "كل شيء ممكن لك وللوسيان جورج. وإذا سمح وقتك سيكون الرئيس فرنجية سعيداً بأن تتناول الغداء إلى مائدته." قال: "شكرا" أنت أدرى بظروف السير والتنقّل بين منطقة وأخرى. كيف الاتصال بك في زغرتا؟" قلت: "إسأل عن ثكنة المردة. وإن لم أكن هناك فسيعثرون علي. واللقاء بالرئيس فرنجية سيكون في إهدن." قال: "شكرا". نلتقي بعد غد." قلت: "أهلا بك. سلّم على لوسيان جورج."

وجوناتان راندال من أوسع الصحافيين الأميركيين شهرة. لم تكن لي معرفة شخصية به لكنني تابعته من خلال مقالاته التي تُترجم وتُنشر أحياناً في الصحافة الفرنسية، أو التي تأخذ منها وكالات الأخبار العالمية وتوزعها على الصحف.

كنت أعرف أنه لا ينصف الرئيس فرنجية دائماً فعللت النفس بأمل أن يحدث اللقاء تغييراً في وجهة نظره. غير ان اللقاء وقع في ظروف استثنائية لم تخدم الغاية التي توخّيتها. وانعكس ذلك في الرسالة التي وجهها الى جريدته عقب اللقاء وفي الكتاب الذي كتبه.

كان ينوي أن يأتي إلينا عن طريق البحر، مروراً بطرابلس، لعله يقابل الرئيس رشيد كرامي الذي اتصلت به فرحّب بالفكرة، وأضاف ممازحاً: "شرط أن تعثروا عليّ." في اليوم التالي، وفي نهاية الندوة الصحافية أبلغتُ الرئيس فرنجية "ووضعتُه في الجو" فقال لي انه سبق واستقبله. وختمت أنني سمحت لنفسي ودعوته إلى الغداء على مائدتكم. قال: "بتمون"، يا خواجه. تعال معه عندما يحضر".

لم يكن الرئيس فرنجية "يلعب" لعبة رئيس الجمهورية المشغول والذي لا يستقبل إلاّ على موعد مسبق. بتواضع وبساطة وحرارة هي جزء جوهري من شخصيته القوية، كان يرحّب بالواصل. وكان يتعامل مع زواره بتفهم كبير للوضع الأمني.

"ظروف التنقل بين منطقة واخرى" كما قال، فرضت على جوناثان راندال أن "يعبر خطوط القوات اللبنانية، ثم الخطوط

السورية، قبل ان يصل الى خطوط المردة في إهدن حيث أرشدوه إلى قصر الرئيس فرنجية،"[1] الذي رحّب به ترحيباً حاراً. ولم يتكرّم ويتصل بي. في طريق العودة إلى بيروت، أصرّ جوناثان راندال على المرور بزغرتا، للتحية والشكر. لم أكن في ثكنة المردة، ولم يعثروا عليّ بسرعة، وحشره الوقت، فترك بطاقة زيارة عليها عبارات الشكر والتحية وأرقام هواتف. وعاد دون المرور بطرابلس. وعبثاً حاولت الاتصال به.

فهم جوناثان راندال أهمية حرب لبنان وخطورتها على التعايش المشترك، ليس في لبنان وحسب، بل في المنطقة كلها. صحيح أن المنطقة فيها أكثرية واضحة ساطعة كعين الشمس، إلا أنها مرصعة ببقع تتراوح أحجامها وتتنوع مصادر الالهام والألوان والأعراق فيها. وهذا التنوّع يغنيها ويعزّز أهمية التناغم والانسجام اللذين توصلت إلى تحقيقهما عبر الأجيال. قيام اسرائيل في قلب هذه اللوحة أحدث اضطراباً كبيراً وزعزع العلاقة بين عناصر التشكيلة كلها وهدّد الانسجام القائم. وفي ظن جوناثان راندال أن حرب لبنان نتيجة مباشرة لقيام إسرائيل وما ترتب عليه من ذيول. كما أنها نتيجة لسوء تصرّف اللبنانيين أنفسهم، الذين

١ - ص ١٥٢ في الطبعة الانكليزية "Going all the way, Viking - New York

نجحوا، بعد حرب استمرت ألف عام[٢]، في تشييد دولتهم وتحقيق استقلالها. ولكنهم، الآن، ماضون في تدمير ما تعبوا وضحّوا في سبيل بنائه. ويحمّل جوناتان راندال الموارنة مسؤولية في اندلاع هذه الحرب. وعندما أخذ جوناتان راندال سنته السابعة، كرّسها لدرس جذور الحرب والظواهر المحيطة بها، وجاء إلى لبنان ليستكمل دراساته وأبحاثه ويختبرها على الأرض ويناقش استنتاجاته وأفكاره مع أصحاب العلاقة، من ناس عاديين وقياديين ومثقفين.

المرة الوحيدة التي خرق فيها جوناتان راندال سنته السابعة ووجه رسالة الى جريدة " الواشنطن بوست" عن الاحداث الجارية، كانت عقب لقائه الرئيس فرنجية غداة مقتل بشير الجميل. وبطبيعة الحال، سأل جوناتان راندال الرئيس فرنجية عن مشاعره بهذا الاغتيال. وبصوته الهادئ، قال له الرئيس فرنجية إنه "ليس مسؤولاً ويا للأسف"[٣]. وبطبيعة الحال، سارع جوناتان راندال إلى كتابة التعليق، كما يجدر بكل صحافي يحترم نفسه أن يفعل. وبطبيعة الحال، تناقلت وكالات الاخبار النبأ واجتزأت هذه العبارة من المقالة، وبطبيعة الحال، نشرت صحف لبنانية العبارة وتناقلتها اذاعات ...

٢- حرب الالف عام" هو عنوان الترجمة الفرنسية للكتاب الذي ألفه جوناتان راندل عن حرب لبنان.

٣- جريدة النهار - بتاريخ ١٨/٩/١٩٨٢، الصفحة الثالثة، وأضاف الرئيس فرنجية أنه حاول اغتيال بشير الجميل منذ حزيران ١٩٧٨، دون أن يوفق .

طُلب مني أن استدرك "زلّة لسان" الرئيس فرنجية. قلت: "لا زلّة لسان ولا استدراك ولا بلوط. كلنا نعرف أن أحداً لا يتروّى في إطلاق أحكام من هذا النوع، مثل الرئيس فرنجية. الرجل صريح وغير معقد ويتحمل مسؤولية كلامه. وكان يعرف أنه يخاطب صحافياً، وكان يعرف أن كلامه سينشر. لقد أبى أن يشترك في مهرجان النفاق والرياء. بالمقابل، عندما قُتلت مايا بشير الجميل في انفجار سيارة والدها، لم يتردّد الرئيس فرنجية في أن يعبّر عن حزنه وعن أسفه لأن يسقط الأطفال الصغار الأبرياء ضحايا صراعات الكبار وطموحاتهم السياسية.

وما أدراك ما جسر المدفون! هو الفاصل الطبيعي بين محافظتي جبل لبنان والشمال. وكان الحد الفاصل بين الخير والشر في أثناء الحرب الأهلية، وكانت عنده وحوله أربعة حواجز تعترض سبيل المغادر مملكة الشر والداخل الى جنّة الخير والسعادة والتقدم.

الحاجز الأول للمردة. يحدّقون بركاب السيارات، ونادراً ما يعترضون سبيل أحد، إنما يتساءلون اذا كان المغادر زغرتاوياً، وقد يتثاقلون ببعض الأسئلة.

الحاجز الثاني للقوات السورية، وهو ملاصق تقريباً لحاجز المردة، ويقع عند رأس جسر المدفون من ناحية محافظة الشمال. لا يتدخلون، بشكل عام، الا في ظروف استثنائية هم وحدهم يحدّدونها.

الحاجز الثالث من الجهة الثانية من الجسر، هو للجيش اللبناني. وهم أيضاً لا يتدخلون، بشكل عام. واذا تدخلوا فلتسهيل الأمور وليس لتعقيدها.

الحاجز الرابع، وهو الأبعد والأهم، حاجز القوات اللبنانية. وكلمة حاجز لا تنطبق عليه. يجب الحديث عن حدود، بين دولتين. يخضع الركاب والسيارات لعمليات تفتيش ويتم التدقيق بالهويات

والجوازات، ويتقاضون ثمن تأشيرات الدخول والخروج، ليس من كل الناس، ويحصّلون رسوم الجمرك ويحددون قيمتها جزافاً.

كانت القوات اللبنانية السباقة الى اقامة هذا الحاجز واتهمت الآخرين بالتقسيم.

عندما اعلن الرئيس سليمان فرنجية، في ندوة صحافية شهيرة وفي تصريح مكتوب سلفاً، انه سيلقن اسرائيل درساً إذا واصلت اجتياحها الى الشمال، ابتسم ناس وسخر آخرون وقال ثالثون إن الحكي ليس عليه جمرك.

لكن الرئيس فرنجية لم يكن يحكي في الهواء. كان يقصد ما يقول. وقد جاءته مناسبة ليثبت أنه يقصد ما يقول.

في يوم، تلقى الرئيس فرنجية معلومة عن سيارة اسرائيلية فيها ثلاثة عسكريين اسرائليين، أخذت طريقها نحو الشمال. وأضافت المعلومة أنهم قد يكونون من جهاز الاستطلاع في القوات الاسرائيلية التي استقرت في لبنان. بادر الرئيس فرنجية الى طلب وهيب خواجه على الفور:

– وهيب، إذا وصلوا عند حاجز الجيش بدي ياهم. قد يعيدهم الجيش من حيث جاؤوا. ولكن أريدهم.

– بأمرك، فخامة الرئيس.

حاول عناصر الجيش السوري ان يتحركوا. أقنعهم وهيب خواجه بضرورة التزام جانب الهدوء "خيراً لكم ولنا. اتركوني أتصرف. معقول أن يهاجم الجيش السوري مركزاً للجيش اللبناني وتمرق عسلام؟". وتركوه، فقد خبروا جرأته وحكمته في مواقف أخرى. هذا الأعرج يبيّض الوجه، ويمكن الاتكال عليه. لو لم يكن جديراً بالثقة كان اختاره الرئيس فرنجية قائداً ميدانياً للمردة؟ قليلاً ما يخطئ الرئيس فرنجية بالرجال الذين يعهد اليهم بمثل هذه المهمات.

وعرف وهيب خواجه أنهم وصلوا الى حاجز الجيش اللبناني، فتقدم مع عناصره وطوّق الموقع بلا ضجة، ودخل وحده دون شور ولا دستور. وقف في وجهه ضابط وقال: "لا يدخل مدني الى هنا" قال وهيب وهو يتقدم برجل أقصر من الاخرى: "أدخل وأعمل وأسوّي. الثلاثة الذين وصلوا إلى هنا في السيارة الواقفة في الخارج يطلبهم الرئيس فرنجية. وسآخذهم اليه بالطريقة التي تريدونها".

قالوا: "لن نسلّمهم". قال وهيب: "لم أستأذنكم. سآخذهم بيدي".

بوصول ضابط ثالث أعلى رتبة ومن المخابرات. ارتفعت حدة النقاش بينه وبين وهيب، فتراجع وهيب خواجه خطوة وشهر مسدسه وقال: "أعرف أنني لن أخرج حياً من هنا. لكن يجب أن

تعرفوا أنه لن يبقى أحد منكم على قيد الحياة. فلا تزيدوا الوضع تعقيداً بين الجيش والمردة. طلبهم مني الرئيس فرنجية، وسآخذهم اليه ولو حدثت مجزرة".

وأيقنوا انه لن يرجع وحيداً أو لن يرجع. وكانوا بغنى عن تعقيد اضافي مع المردة، وهم الذين يحبون الرئيس فرنجية ويكنّون له الاحترام، فتركوهم مكرهين. أليس المطلوب منهم الآن التزام الحذر والستر؟

وساق وهيب خواجة الثلاثة أمامه الى سيارته، وأحاط به العناصر الآخرون وانطلقوا عائدين الى قاعدتهم، سالمين غانمين.

قال لي وهيب خواجه: "لم نكبّلهم ولم نعرّضهم لأي اذلال او أذى. حاول أحدهم أن يحكي فاومأت بيدي ووضعت إصبعي على شفتي، فلم يفتح فمه. وأبلغت الرئيس فرنجية أنهم صاروا في حوزتي. قال لي الرئيس: "تسلمهم باليد الى العميد زهير المستت، قائد قوات الردع السورية في منطقة البترون".

"وكان العميد زهير في انتظاري. لم يصدق حين شاهدهم. قال لي بحماس: "هذه عملية في غاية الأهمية، يا وهيب!"

وأضاف وهيب خواجه: "شعرت ان الأسرى الثلاثة ارتاحوا نوعاً ما حين أصبحوا بين أيدي القوات السورية. كانوا يفضلون الأسر عند جيش نظامي على البقاء مع عناصر ميليشيا".

"وفرحت لفرح العميد زهير. كان ولا يزال صديقاً عزيزاً، ومتعاوناً وجريئاً. وفي غاية اللطف والتهذيب. حين انفجر فيّ اللغم، في إحدى العمليات العسكرية، وطيّر مشط رجلي اليمنى، عادني العميد زهير في المستشفى. وفي خلال الحديث، قلت له بأسى: "لم يعد بوسعي قيادة العمليات الدقيقة، التي تتطلب سرعة في الحركة". أجابني بعفوية: "أنا أطلع محلك".

وأنهى وهيب خواجه: "عندك مواقف لا يمكن ان تنساها وكلمات تنحفر في رأسك، كما انحفر هذا الجرح في جسدي الى الأبد. أصبت بجروح أخرى لكنها اندملت كلها. إلا هذا الجرح. نقصت من جسمي قطعة. كيف يمكن أن أنسى؟"

وأنا أيضاً، صرت أقول: الرحلة من باريس الى دمشق أربع ساعات. ومن دمشق الى زغرتا أربع ساعات وأحياناً خمس ساعات، إذا كانت الحدود مزدحمة. وصار عندنا خط مباشر بين مطار دمشق وزغرتا.

من دمشق إلى حمص فالحدود اللبنانية عند العبودية، ثم الى المنيا والبداوي. هذه المرة، اخترت المرور بمخيم البداوي وعدم الدخول إلى طرابلس.

في اليوم التالي، كالعادة، قصدت القصر لتحية الرئيس فرنجية. ثم نزلت إلى طرابلس. في طريق العودة، تابعت إلى ثكنة المردة في زغرتا، لزيارة الاستاذ فرنسوا فرنجية، المحامي والصديق والمسؤول في غياب روبير بيك.

قبلات وسلام وكلام وتطمينات عن الشغل والعيال. وحديث عن أخبار اليوم. قال فرنسوا فرنجية:

– طرابلس مضطربة، اليوم...

قاطعته: "أنا واصل من طرابلس."

لم يصدق فرنسوا فرنجية: "كيف أنت واصل من طرابلس؟"

– أنا واصل من طرابلس لتوي. ولم ألاحظ شيئاً.

اضطرب فرنسوا فرنجية: "كيف نزلت؟ متى نزلت؟

- بسيارتي، منذ حوالي ساعتين.

- وبقيت في طرابلس ساعتين؟

- وتنقلت بين أكثر من مكتبة، الآن وأنت تحكي أتذكّر أنني استغربت ألا ألتقي بسيارات نازلة او طالعة.

- وتركك حاجز المردة تمرّ دون أن يقولوا شيئاً؟

- سلّمت عليهم كالعادة، وردّوا مهنئين بسلامة العودة من باريس تأكيداً على أنهم عرفوني!

وتناول فرنسوا فرنجية الهاتف الذي يربطه بحواجز المردة كلها، وطلب حاجز مجدليا على طريق طرابلس وسأله بنبرة قاسية: "كيف تركتم الأستاذ جورج ينزل الى طرابلس؟ ألم أبلّغكم أنه لا ينزل اليوم أحد من زغرتا الى طرابلس؟

دهشت. وحين أعاد التلفون إلى مكانه، قال: "تصوَّروا أنك نازل في مهمة." لكن، "شوفي؟ ما هو سبب اضطرابك؟" وفهمت أن القصة قصة خطف وأن فرنسوا فرنجية ملزم بالكتمان الشديد، لأن أي تسريب يهدّد بتعقيد القصة. ولم أشأ احراجه، فمازحته: "معك حق، الصحافي يبقى صحافياً، ولا يُؤمَن له." ابتسم فرنسوا فرنجية ابتسامته الرقيقة الودودة، ولم يعلّق.

في اليوم التالي، التقيت بالجنرال أنطوان بركات في القصر. صرخ كعادته، بصوته الجهوري العالي، كأنه يتسلّم قيادة فوجه في

الفياضية: "وينك؟ أفتش عنك وعن طريقة للاتصال بك. أخبرني الرئيس أمس أنك هنا." وجلسنا في الصالون الواسع في الطابق الأرضي. بعد قليل، قال: "الله يساعدهم! الله يساعد الرئيس. بعد وصولي بدقائق، صعد الرقيب الأول وأدى التحية ثم قال: فخامة الرئيس، جاءنا اتصال أن أحد القبضايات خطف ستة شباب من المنيا لخلاف على صفقة دخان، وجاء بهم إلى زغرتا."

انشغل بال الرئيس. قال فوراً: "أطلب وهيب خواجه. هذا مانو قبضاي. هذا أزعر وبلا أخلاق. ما دقّ إلا بأولاد المنيا؟ أولاد المنيا أولادنا وأهلنا."

بعد أقل من دقيقة، كان وهيب خواجه على الخط. قال له الرئيس: "قالوا لي إن هالأزعر خطف شباباً من المنيا. استعلم عن الخبر وعن مكان وجودهم اذا كان صحيحاً."

وتابع الجنرال بركات المعجب بفعالية جهاز الاتصال والمخابرات عند المردة. بعد دقائق، أكّد وهيب خواجه صحة الخبر، وحدّد مكان وجود المخطوفين، في "مستوعب / كونتنر" ناحية العقبة، على مدخل زغرتا من جهة طرابلس.

قال الرئيس: "خذ ثلاثة جيبات عسكرية وتسعة عناصر حتى يفهم انكم عملتم له قيمة فيمتنع عن مواجهتكم وداهموه فوراً وحاصروه. وإذا قاوم، لا تتساهلوا معه. وعودوا بالشباب إلى الثكنة، وخبّرني."

وأضاف الجنرال بركات المزداد إعجاباً: "والله، مثل خيرة الضباط! بعد ربع ساعة، أبلغ وهيب خواجه الرئيس أن "الأزعر قبضاي لكنه ليس مجنوناً. وحين شاهدنا، ضحك ورحّب بنا ودعانا لشرب القهوة. فانتهرته: وقتك ووقت القهوة، الآن؟ أعطنا الشباب." وفتح باب المستوعب، وسلّمت على الشباب وطمأنتهم وقلت لهم إنهم صاروا ضيوف المردة. وجئت بهم إلى الثكنة، واعتذرت منهم، وسقيناهم قهوة وماءً وعصيراً، وعرضنا عليهم سندويشات فرفضوا وشكرونا".

قال الرئيس: "يكفي واجبات. كرّروا الاعتذار وروّقوهم وطمّنوهم وسيروا بهم بسرعة الى أهلهم، قبل أن ينتشر الخبر."

قلت: "فهمت لماذا كان فرنسوا فرنجية مضطرباً. خاف عليّ. معك حق، يا جنرال. الله يساعدهم. والله يساعد الناس الذين كان عندهم أشغال في طرابلس، ماذا فعلوا؟"

دخل الياس حنا، عصر ذلك اليوم، على الرئيس فرنجية الذي رحّب به بحرارته المعهودة كان زميله توفيق معوض نصح الرئيس فرنجية به عندما سأله عن محام عنده معارف في القاهرة، وحدّد له الموعد مع الرئيس. وكان توفيق معوض ورامز الخازن وعدد من الزوار حاضرين حين وصل الياس حنا. بعد قليل، انسحب الجميع باستثناء رامز خازن.

"رامز مهم"، قال الياس حنا، وأضاف: "خُيِّل الي ان الرئيس فرنجية يبذل جهداً في محاولة جمع شتات نفسه. تعجبت. قال لي بعد شيء من التردد: "اسمع، يا ابني، سأفتح معك حديثاً لم أفتحه مع أحد، وما كنت ناوي أن أفتحه ابداً."

والياس حنا يزداد حيرة، يعرف موضوع الحديث وسبب حضوره، ولا يرى ما الذي يحرج الرئيس فرنجية الى هذه الدرجة.

وتابع الرئيس: "إبني طوني.." وانفجر بالبكاء. انصرع الياس حنا: هذا الرئيس الذي والذي والذي.. هذا الرجل الذي قالوا عنه إنه قبضاي وصاحب مراجل ولا يحتمل الزكزكة ولا يهاب احداً، ويوزّع الكفوف على اليمين وعلى اليسار، شرّيب عرق وضرّيب قصبة نيّة، على زناره مسدس إن لم يكن اثنان.. هذا

الرئيس يبكي أمامه كالطفل.. جمد الياس حنا.

مسح الرئيس فرنجية دموعه ولملم نفسه وتابع: "رأيتَ لماذا لم أحكِ ولا أحب ان أحكي بالموضوع؟ لكني مجبور." وعاد الرئيس فرنجية إلى البكاء. عندك جروح لا تُضمّد وأحزان لا تُروّض ودموع لا تجف.

رامز خازن والياس حنا لا يأتيان بحركة. لا ينبسان بكلمة. يَودّان لو تنشق الارض وتبتلعهما. ومسح الرئيس فرنجية دموعه وتابع: "عندي قضية في مصر وتوفيق معوض حكى لي الكثير عنك. وأرى انه لم يبالغ. هل عندك معارف في القاهرة؟ هل عندك وقت واستعداد لتقوم بهذه المهمة؟"

أجاب الياس حنا، وهو بالغ التأثر: "فخامة الرئيس، هذا شرف كبير لي، وثقتك غالية جداً. نعم، عندي علاقة مهنية وشخصية مع زملاء في القاهرة، أحدهم الصديق فكري مكرم عبيد، شقيق مكرم عبيد الزعيم المصري الكبير، وهو محام ونائب رئيس الوزراء. وأعتقد أنه خير المؤهلين لمثل هذه المهمة."

– ممتاز! نسّق مع رامز بالنسبة للأوراق والوثائق. وخبّرني ساعة تنوي السفر". وانتقلوا إلى مواضيع اخرى وراق الرئيس فرنجية.

مساء ذلك اليوم، تعشى الياس حنا إلى مائدة الرئيس فرنجية. وحين رآه يصبّ لنفسه كأساً من الويسكي سأله: "وكأس العرق، يا

فخامة الرئيس؟" ضحك الرئيس وقال: "العرق للظهر.. أفضّل الويسكي في المساء لأنه أخفّ وأنعم."

– لكن بيار صادق سيحتج!

– اذا كان صاحبك، جئ به في زيارتك المقبلة.

كانت العائلة كلها تقريباً حول الطاولة. كان الجوّ مرحاً، نكّتوا وتبادلوا القصص والخبريات. والياس حنا نبع أخبار فتبنّوه وتبنّاهم.

سافر الياس حنا وعاد إلى زغرتا ومعه ملف سميك. وقدم تقريراً للرئيس فرنجية وعرض أمامه اقتراحات وحلولاً. لم يتركه الرئيس فرنجية يعلّق على الاقتراحات. قاطعه وقال: "يرحم أهلك، إعمل ما يطلبونه وبالشكل الذي يريدون". وهاجت الذكريات وتلطّخ وجهه بالدموع. وبقي الياس حنا على الغداء. هناك، عثر الياس حنا على سليمان فرنجية الذي يعرفه بالصورة والشهرة، جالساً إلى تلك المائدة. سليمان فرنجية بيار صادق.

روّاد القصر يعرفون أنّ بين الغداء والعشاء فرقاً. الغداء مفتوح، الباب مشرّع والطاولة واسعة. مَن يصل يجلس. المشروب عرق والحديث جدّي ويتناول الأوضاع الراهنة، وتتخلّله نوادر، لا

يتردّد الرئيس في رواية بعضها، اذا وجد أنها مفيدة أو مسلية. في بداية انهيار الليرة سمعته يقول لوزير مال سابق ورئيس مجلس إدارة أحد أكبر المصارف: "السريلنكية، بلا زغرة، شهريتها بالدولار أكبر من تعويضي بالليرة اللبنانية".

ضيوف العشاء مختارون، والمشروب ويسكي أو نبيذ، والأحاديث خاصة وخفيفة.

ضيف سليمان فرنجية يتعشى مع رئيس الجمهورية السابق ويتغدى مع شخصية بيار صادق. ويحبّ الرئيس فرنجية أن يتقمّص تلك الشخصية: الماروني الأصيل، النازل من الجبل باللبّادة والقميص المقصّب والشروال و"الجربندية" والبارودة المعدّلة وكأس العرق. الكأس دائماً على الطاولة وإن كان فارغاً. والتتن من انتاجه وتصنيعه وبزّ السيجارة.. ويعتبر الرئيس فرنجية أنه قريب جداً من تلك الشخصية، ولذلك فإنه لا يتكلّف ولا يتصنّع إنما ينتبه إلى بعض التفاصيل لتتطابق مع الصورة.

في المساء، يسترجع الرئيس نفسه، يعود سليمان فرنجية الحقيقي، العفوي، الذي يحكي الفرنسية بطلاقة، والمثقف وصاحب الخبرة الواسعة. ويشدّد الياس حنا على الثقافة، ويضيف: "لولا الثقافة الواسعة ما كان عنده ذلك الحسّ السياسي المرهف. الرئيس فرنجية عنده السياسة في الدم. وكم كانت مفاجآتي كبيرة وأنا أذهب من اكتشاف الى اكتشاف، لأنني صرت أتردد عليه

كثيراً، ويستقبلني أحياناً في المزرعة قرب بسبعل، على طريق زغرتا من جهة الكورة. هذا لا يعني أن ثقافته ليس فيها ثغرات. وهو أول المعترفين بذلك. الذين أُعطي لهم أن يقتربوا منه يتذكّرون أنه كان يقول دائماً: "لا أعرف." وكان في منتهى اللطف ودماثة الاخلاق. وكان فارساً بكل معنى الكلمة، بالنبل والجرأة والدفاع عن الحق. كل نوادره عن الفروسية. ومن أشرف أوجه نبله وفروسيته أنه إذا غضب من كبير لا "يفش خلقه" بصغير لا علاقة له بإثارة غضبه. وهذه الأخلاق الكريمة تفسّر مواقف سياسية كثيرة. ولم يكن تياهاً ولا بطّاشاً. وقد ازددنا قرباً وصداقة عندما اكتشفنا اننا تخرجنا من مدرسة واحدة. مدرسة عينطورا."

زغرتا – الاستماع فن عند الرئيس فرنجية

طلب مني الرئيس فرنجية تقريراً عن الاذاعة وعن احتمالات وامكانيات توسيعها. وعدت اليه بالتقرير المطلوب، مع رسالة تقديم من ثلاث صفحات. قال لي: "إحرص على أن تكون تقاريرك أو رسائلك أو مذكراتك إلى مسؤول كبير بصفحة واحدة، وبأقصى حد صفحة ونصف الصفحة. وإلا فلن يقرأها. سيوجزونها له".

في موقف آخر، وفي اجتماع دوري معه لمجلس ثقافي في شمالي لبنان تكرّموا علي بدعوتي لحضوره، جرى فيه بحث ومناقشة الوضع المستجد بعد انتخاب أمين الجميل رئيساً للجمهورية، راح كل واحد يحلل ويقوّم ويقدم اقتراحاً او يعرض خطة. وأصغى الرئيس فرنجية بانتباه، واكتفى بالقول: "تذكروا في كل ما تكتبون أن عندي موقفاً معروفاً وثوابت، وأنني حريص على أن أكون دائماً منسجماً مع نفسي".

لم يكن الرئيس فرنجية مستمعاً جيداً. كان الاستماع فناً قائماً بذاته عنده. بطريقة الاصغاء الى المتكلم، اذا لمس أن عنده شيئاً يقوله. يشجعه ويحثّه على الكلام باقباله عليه بعينيه وأذنيه وحركة جسده. وبالامتناع عن مقاطعته. واذا فعل فبكلمات معدودة تصلح لأن تكون نقاط ارتكاز، بوسع المتكلم ان يتخذها مطية للمضيّ في

حديثه او للاستطراد. ولا يصرف الرئيس فرنجية عينيه عنه ولا ينشغل بأي شيء آخر. فيضطر الحاضرون الى الاقتداء به.

أما إذا كان الكلام جعجعة، فعنده مائة طريقة واسلوب لتغيير الحديث.

وبرأيي أنه لم يكن عند الرئيس فرنجية كلامان. كان عنده حديثان. يعني انه إذا كان يحكي حديثاً أو يصغي الى حديث ودخل داخل لا يريده أن يشترك بالحديث أو يطلع عليه، كان يقطع الحديث الجاري وينتقل الى الحديث الآخر. والحديث الآخر دائماً جاهز، وبسهولة ملفتة. وكان لكل زائر أو جليس حديث آخر يثير اهتمامه. من الطقس الى الأرض الى المواسم الى الاغتراب، أو الى الموضوع الذي يتوقع أن يراجع فيه الزائر، ونادراً ما يفتح أحاديث السياسة أو يتابع فيها مع غير أصحابها أو المعنيين بها.

وإذا أراد المضي في حديث لا يعجب محدثه فإنه صريح الى أقصى حدود الصراحة، ويقول للأعور أعور بعينه. ولم يكن يطيق الكذب. بينما كان يحب الضحك. اذا كان اغتيال طوني وعائلته قد سوّد الدنيا في عينيه، فإنه استعاد مرحه بعد زواج سليمان وعاد اليه فرح الحياة بعد مجيء طوني، وعاد يسترسل في الضحك، وضحكته عفوية ومعدية.

زاره الوزير ميشال اده في أثناء وجوده في باريس في بيت عصام فارس، وعلى غير عادة الوزير، لم ينكّت. ربما بسبب وجودي. وبعد ان غادر، تذكر الرئيس فرنجية أنه في أول زيارة له الى بيت الوزير اده، لم يتوقف لحظة عن الضحك. "متنا من الضحك".

روما – الرقم الضائع.

اتصل روبير بيك فرنجية من روما وفي صوته ابتسامة عريضة: "وصلت الى روما، ويجب أن أقابل المونسنيور جوزف خوري. يبدو انه غيّر رقمه. كنتُ في مهمة، صرتُ في إجازة. من زمان، لم أشعر بهذه الحرية."

– مبروك بالاجازة، وأنت فعلا تستحقها، بعد الاحداث الجسيمة المتعاقبة علينا.

– أعود فأتصل بك.

– أحاول من جهتي العثور على المونسنيور خوري؟

– من باريس؟

– نعم، من باريس.

– جرّب، وسأحاول أنا أيضاً.

لا يزال الى اليوم يضحك وهو يسأل: "كيف عملت؟"

– رغباتك أوامر، يا بيك!

كان في مهمة غير معلنة في الفاتيكان. بعد حوالي ساعتين اتصل وقال: "هذه رسالة الى الرئيس. إتّصل به على الخط السريّ. الاتصال من روما على هذا الخط معقد."

ردّت الست لميا على الخط السرّي. رحّبت بدهشة، وكادت تقول: "لم أتوقع أن تعرف الرقم السري. لحظة، وأعطيك الرئيس."

وأخذني الرئيس فرنجية وسلّم بتأثر. هل كان باله مشغولاً على روبير بيك حتى تأثّر؟

بعد ان بلّغته الرسالة وحمّلني الجواب، قال: "إذهب إلى روما. لا تتركه وحده."

– تأمر، فخامة الرئيس.

قال لي روبير بيك: "إياك أن تحضر. لا أريد أن أرى وجهك في روما. ولكني سأكون سعيداً جداً برؤيتك في باريس. في غضون يومين أو ثلاثة أكون في باريس. طمئن الرئيس."

عاتبني الرئيس لأنني لا أزال في باريس. لكنه تفهّم على مضض ترددي. وارتاح للرسالة.

بعد يومين، اتصل روبير بيك ليقول إنه واصل وانتظرته في المطار. تعجبت لأنه لم يستعمل الجواز الدبلوماسي.

– لماذا الجواز الدبلوماسي؟ ما فيك تتصوّر قديش أنا متشوّق أن أمشي واتجوّل في الشوارع دون أن يعرفني أحد، أن أنجز معاملاتي بنفسي، أن أحمل حقائبي، أن أركب تاكسي. اكتشفت أن هذه الأعمال الصغيرة العادية البسيطة هي جزء مهم من حريتي.

– كدت أخيّب أملك. كدت أكدّر رحلتك، كدت أرتب تظاهرة

لاستقبالك.

– كنت قوستك.

– يا بيك، أجد أنك تهدّدني كثيراً بالقواس. أولاً، أنا أخاف. ثانياً، معلوماتي أنك لا تعرف أن تقوس.

– معلوماتك عتيقة. تدرّبت كثيراً. عملت دورات رماية على كل الأسلحة. صرت أصيب عين الديك. أنظر إلى معصم يدي اليمين، ألا تلاحظ أنه أسمك من المعصم اليسار؟ ومدّ الاثنين أمامي.

قضينا ثلاثة أيام من العمر. عمّرنا لبنان وهدمناه، وأعدنا بناءه وتدميره عشرين مرة. وطبّقنا "الوثيقة الدستورية"[1] وعدّلنا الدستور واخترنا صيغة متطورة لصيغة ١٩٤٣. أما زغرتا فعنده لها طموحات كبيرة. طموحات جمالية وتنظيمية. برأيه، كل شيء يبدأ بالذوق والنظام والتنسيق. كل الأشياء الأخرى تتبع. وبرأيه أن زغرتا محرومة.

قلت له إنه مسؤول عن جزء من هذا الحرمان. لم ينكر. وأضاف أنه في غياب الدولة يحاول أن يعوّض عن هذا الحرمان بعدد من المشاريع التعاونية، على أمل أن تحقّق بداية تنمية وأن تُشيع شعوراً ولو ضئيلاً بالعدل الاجتماعي. ذكّرني بالتعاونية

١ –الوثيقة الدستورية التي أطلقها الرئيس فرنجية في ١٩٧٦/٢/١٥ بمبادرة سورية وموافقة الرئيس رشيد كرامي والتي اقترح فيها اجراء تعديلات دستورية لتعميق المشاركة.

الاستهلاكية، التي كانت تبيع السلع ذاتها بثلاثين أو أربعين بـالمئة أرخص من المتاجر الاخرى. "وصيدلية المـردة". كانـت تأتـي بـالأدوية التي تعجز الصيدليات الاخرى عن الحـصول عليها، وتبيعها بالطريقة ذاتها. و"فرن المردة"، كان يبيع الخبـز بسـعر الكلفة، ومصنع الخفان، كان يبـيع حـجارة الخفان بسـعر الكلفة أيضاً... بطبـيعة الحـال، هذا كله بـتوجيه من الرئيس فرنجية وتشجيعه.

والأهم من هذا كله، أنه أخذ يروق. لم تندمل جروح الغـدر بعد. لكنها لم تعد تنزف. لم تعد تحرق. ويساعده على الارتياح أنه يرى والديه يستعيدان شيئاً فشيئاً صفاءهما.

قليل جداً أن أقول إنه يحبهما ويحب سليمان "الزغير". لمست أنه يحبـهم أكثر من نفسـه. أما والدته، "إمرأة عظيمة... إمرأة عظيمة..." فكانت لها مكانة خاصة. الألم الذي تحمّلته، والصبـر الذي تحلّت به، والصلابة التي برهنت عنها سـاعدته كثيراً على التغلب على المحنة. وشـعرتُ أنه صبّ على سـليمان عواطف الأبوّة التي حرم نفسه منها.

جمعتُه على الغداء مع أنطوان نوفل، مدير اذاعـة مونـت كارلو وصاحب البرنامج الاذاعي الشهير "حدث غداً". سرى التيار

بينهما. قـال لي أنطوان نوفل فيما بـعد: "ما هذه النعومة؟ ما هذا الرواق؟ ما هذا الحزم! وما هذه الثقافة! هل كان يمثّل علينا دوراً أم إنه هكذا على طول؟

– لو لاحظت انه يمثل، هل كنت قلت ما قلت؟

– بالضبط، لا. هذا ما حيّرني. ومن أين تلك السمعة التي تلاحـق بيتهم، أباً عن أخ؟

– إنهم أرقّ الناس، وأشدّهم خُلقاً وتهذيبـاً، إذا لم تعتدِ عليهم أو لم تحاول أن تدوس على أقدامهم. وإنهم أشـرس الناس وأعندهم إذا تطاولت عليهم.

– صحيح، هذا هو الانطباع الذي كوّنته عن الرئيس فرنجية، بـعد مقابـلته أكثر من مرة، وبـعد ما عرفته عنه. وروبـير رسّخ هذا الانطباع فيّ. أتمنى أن نتقابل في كل مرة يأتي إلى باريس.

زمن الحوارات المقطوعة

جنيف والموعد المفوّت

دقّ التلفون وجاءني صوته الودّي والصريح. وبعد السلام سألني روبير بيك فرنجية: "أنا في نيويورك، ولا شك أنك علمت أننا ذاهبون إلى جنيف؟

- طبعاً، علمت وفرحت.

- هل ترافقني إلى جنيف؟

فاجأني السؤال فقلت:" ولو يا بيك، ما إن عرفت أن الرئيس فرنجية سيحضر إلى جنيف حتى قررت أن أركب سيارتي وأذهب إليها. معقول أن يأتي الرئيس فرنجية إلى جنيف وأنا في باريس ولا أحضر لأسلّم عليه؟

- أعرف، ولكن لا بدّ من طرح السؤال.

- تعرف أنني مستعد أن أرافقك إلى الجحيم، كيف لا أرافقك إلى جنيف؟

- نحكي غداً. أنا واصل الليلة إلى باريس. لا تعذّب نفسك وتصعد إلى المطار. نلتقي غداً في الحادية عشرة، كالعادة.

- هل أتخذ تدابير معينة بالنسبة لجنيف؟

- نحكي غداً.

- يا أهلاً بالبيك. نوّرتْ لمجرد أنك نويت أن تحضر إلى باريس.

والتقـــينا في الغد، ولكن ليس كالعادة. وجدت جمهرة من الناس في صالون شقته في فندق الريتز. وكانت طاولتنا إلى الغداء في مطعم الفندق أكبر طاولة. قال: "إرجع بـــعد الظهر". رجعت. زاد العدد. سألته بـــصوت عال إذا تمكن من أن يرتاح بـــعد الغداء ويأخذ قيلولة سريعة. أجاب أحدهم: "اشتقـــنا للبـــيك. من زمان ما شـــفناه". قـــلت: "مع أنه لم ينقـــطع عن بـــاريس". مرّ ملاك في الصالون. ضحك البيك.

لم أرجع في المساء، كان عندي ارتباط قـــديم. توقـــعت أن يدعوني إلى الترويقة. كان عنده ارتباطات مســـتجدة. وتغدينا من جديد، وعدد الزوار يزداد. ولم نحكِ. وهو مغادر هذا المســـاء إلى جنيف. وغادر ذلك المســـاء إلى جنيف. وحـــالت ظروف دون أن أذهب إلى جنيف.

دمشق – قصر الضيافة

انتهى مؤتمر الحوار الوطني الأول الذي عقد في جنيف، في ٤ تشـــرين الثاني ١٩٨٣. في طريق العودة الى لبـــنان توقـــف الرئيسان سليمان فرنجية ورشيد كرامي في دمشق، واقام الرئيس سليمان فرنجية في قصر الضيافة، بـــانتظار ان يستقبـــله الرئيس الأسد في اليوم التالي. فيغادر الى زغرتا بعد انتهاء اللقاء.

الزغرتاويون الذين كانوا في دمشق – وعاصمة الأمويين لا تخلو منهم منذ ١٣ حزيران ١٩٧٨ – هرعوا الى قصر الضيافة، بين الزوار جبران عريجي وإيليّا حْديّد. استقبلهما الرئيس فرنجية في صالونه الخاص في الطابق الأول وابـــلغهما أنه ينتظر زيارة الرئيس كرامي بين لحظة وأخرى.

كانت المعارك على اشدها في طرابلس بين جناح ابو موسى المنشق عن منظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح وبـــين ياســـر عرفات، الذي غادر لبنان من بيروت وعاد اليه من طرابلس.

وسأل جبران عريجي الرئيس فرنجية رأيه بصراع الاخوة بين ابو موسى وياسر عرفات، وهو يتوقع تأييداً صريحـــاً لأبـــو موسى باعتبار تحالفه مع الســـوريين. وفوجئ بـــالرئيس فرنجية يجيبـــه بـــعفوية: "خوخة مهترية ومقســـومة شقـــفتين". وأضاف الرئيس، بعد أن أبلغه نجله روبير بيك بـــوصول الرئيس كرامي:

"قوموا ننزل لنستقبل الرئيس كرامي".

في خلال الحديث، قال الرئيس كرامي إنه باق في دمشق ريثما تتوقف المعارك وينجلي الوضع. أجابه الرئيس فرنجية بصدق: "ولماذا تبقى في دمشق؟ لماذا لا تقيم في إهدن، بين أهلك وجيرانك، وتظل قريباً من طرابلس؟

- وفي دمشق أنا أيضاً بين أهلي، وأبقى بعيداً عن ضغط الاحداث.

- كما تريد. تعرف جيداً أن عندك أكثر من بيت في إهدن، وان الطقس بالتشارين جميل جداً.

كان عشير الدايه، رئيس بلدية طرابلس يأتيه يومياً حاملاً تقريراً مفصلاً عن الوضع وتطوره ميدانياً، ورسائل من مختلف الجهات. كما كان الحاج واصف فتال والاستاذ عدنان الجسر، عضوا اللجنة السياسية يزورانه مرة أو مرتين في الاسبوع، وحيدين أو برفقة عشير الداية أو برفقة آخرين من هيئة التنسيق. ومن دمشق ناشد الرئيس كرامي ياسر عرفات مغادرة طرابلس قبل ان تُدمّر على رؤوس اصحابها.

لوزان – فندق بوريفاج – مؤتمر الحوار الوطني الثاني

في ١٢ آذار ١٩٨٤، انعقد مؤتمر الحوار الوطني الثاني في لوزان. لم يتصل بي أحد ولم يطلب مني أحد أن أحضر، فحملت حالي وطرت الى لوزان، كما كنت مقرراً أن أفعل عشية مؤتمر جنيف. وبعد ان استقريت في فندق قريب من فندق بوريفاج، مقر المؤتمر، قمت بالتاكسي الى فيلا عصام فارس في مدينة غان حيث يقيم الرئيس فرنجية طيلة مدة المؤتمر. فيلا أنيقة على شاطئ بحيرة ليمان وسط حديقة واسعة أقرب الى غابة.

رحّب بي الرئيس فرنجية وضموني الى الوفد.

في اليوم التالي وصل الرئيس فرنجية الى الفندق، يسبقه جوزيف فرنجية وقبلان بو عزيز يمين. على صدريهما "البادج" باللون الذي يسمح لهما بحمل ما يشاءان وبالتجوال بكل حرية في كل أنحاء وقاعات المؤتمر. وأومأ اليهما المسؤول بعدم المرور من الباب الألكتروني، لمجرّد رؤية لون "البادج".

تقدم الرئيس فرنجية من الباب الألكتروني وعبره وهو يبتسم فشكره الضابط المسؤول فردّ الرئيس بكلمة أثنى فيها على عملهم.

تذكرت رواية سرتْ في زغرتا، بعد مؤتمر جنيف، أن أجهزة الانذار اشتغلت كلها عند مرور الرئيس فرنجية من الباب الالكتروني. طلب منه الضابط السويسري أن يتخلى عن كل ما هو معدني: مفاتيح، قطع نقود، قلم حبر، الخ... ويعود ويمر. ولبى الرئيس الطلب وهو يضحك. ومرّ ثانية، فاشتغلت أجهزة الانذار. عندئذ توقف الرئيس عن الضحك، وحين اقترب منه الضابط خاطبه بحزم: "اسمع، يا ابني، في كل مرة أدخل من هنا يجب أن تعزف لي موسيقى الشرف لتحيتي. وأنت تريد أن تفتشني؟ زيح من الدرب." وفي روايات أنه قالها له بالعربية، وأزاحه بيده وتابع سيره.

في زغرتا، تفسيرات عدة للانذارات الألكترونية، أحدها أن الرئيس فرنجية يحمل ذخيرة في علبة حديدية تتدلى من رقبته بسلسلة ذهبية، وتلامس جسده. وهو لا يتخلى عنها في أي ظرف من الظروف. لم يكن بالامكان التحقق من هذه الرواية ولا من غيرها، فاكتفيت بها.

وتابع الرئيس فرنجية إلى الطابق الثاني وإلى طاولته المستديرة. قال له المحامي انطوان فرنجية: "فخامة الرئيس، قبل قليل وصلت سلة كبيرة من الزهور باسم الملك فهد."

– كثر الله خيره!

كانت زيارته الأولى إلى شقته في الفندق. ارتاح قليلاً. وإذا بمجموعة من الوفد المرافق للرئيس رشيد كرامي تصل إلى الشقة لتحيته. انفرجت أساريره عند رؤيتهم ورحب بهم بحرارة، ومزح مع الحاج واصف فتال وأجلسه إلى جانبه. وقال لأحمد حبوس، الذي كان حليقاً: "أنت محسوب علينا، يا أحمد!" ردّوا كلهم بصوت واحد: "كلنا إلك، يا فخامة الرئيس."

سأله الحاج واصف فتال عن الأجواء.

– عادي. ما بدأنا بعد.

– تتوقع فخامتك ان تنتهوا إلى شيء.

– خير، تفاءلوا بالخير.

لفته الحاج واصف فتال إلى "أننا جيران، في الغربة وفي الوطن. قريبون ومتفاهمون." وبالفعل، شقة الرئيس كرامي على بعد غرفتين أو ثلاث.

– دائماً، باذن الله.

كان الحاج واصف متفائلاً أكثر من اللزوم. في أول يوم أحد بعد بداية المؤتمر، اصطحب الرئيس فرنجية الرئيس كرامي في سيارته في نزهة عبر القرى السويسرية في الجبال.

في ثاني يوم أحد، كان الوفدان يتبادلان الانتقادات، ولكن دائماً في إطار من التهذيب والاحترام المتبادل. وفي آخر زيارة

إلى "شقتنا"، رأيت الحاج واصف فـــتال يجلس أمام الست سونيا فرنجية الراسي ويصغي إليها باهتمام مهذّب وهي تُحـمّل الرئيس كرامي مسؤولية فرط جبهة الخلاص. ولم ينبس بـكلمة. وعندما انتهت من مرافعتها وقف هو وزميلاه وقال لها وهو يســتأذن منها بالانصراف: "معقولة تحكي غير هيك، يا ست؟ الله يطوّل بعمرك وعمر فخامة الرئيس."

لوزان - خلاف واصطدام ومؤتمر صحافي واسترضاء

فجأة، ضجّت غرفة الصحافة ونغل الصحـافيون كأنهم في خلية نحل. "شو القصة؟".

- الاصطدام المتوقع في داخل المؤتمر حـصل، أخيراً. ورُفعت الجلسة، وخرج المؤتمرون غاضبين.

قال زميل لم يتحرك من مكانه من ساعة، ولا يمكن أن يكون تلقى اتصالاً من أحد: "علقت بين الموارنة وعلقــت على عروبـة لبنان". وضحك كل من سمع.

مَن؟ ماذا؟ كيف؟ هرولتُ إلى شقـــة الرئيس فرنجية في الطابق الثاني من الفندق، وأنا لا أستبـعد أن يكون الرئيس طرفاً. عنده مائة سبب كي يصطدم بثلاثة أرباع المشتركين، على الأقل. الشيخ سيمون بـولس كان أول من صادفت فأخبـرني أن الرئيس فرنجية اصطدم بكميل شمعون وبـيار الجميل في داخل المؤتمر. كان هذا كل ما يعرفه.

في الطابق الثاني، التقيت بالرئيس فرنجية محاطاً بـأعضاء الوفد جميعاً ويتبعه جمهور من الأصدقـاء والمؤيدين متوجهاً إلى شقته. كانت شفته السفلى متدلية، فلم أعد بحاجة إلى سؤال. ناداني دون أن يتوقف وقال لي: "إعقد مؤتمراً صحـافياً ولا تتكلم إلا عن

عروبة لبنان".

في الصالون، حول الطاولة المستديرة، تابع يقول لي: "ركّز على عروبة لبنان وانتقد السياسة الأميركية. هاجم واشنطن بعنف".

- والاصطدام مع كميل شمعون وبيار الجميل، كيف ولماذا وقع؟ لا أستطيع أن أتجنب أسئلتهم عنه.
- إسأل عن التفاصيل.

لا أحد يحضر جلسات المؤتمر إلا الجالسان عن يمينه وعن يساره وبالتالي، هما الوحيدان اللذان يعرفان التفاصيل. ولم يتحرك أحد منهما. ولم أتمكن من أن ألتقط نظرات أحدهما. وروبير بيك مشغول باله على الرئيس. "لا يجوز أن يحتدّ ولا أن يأخذه الغضب على هذا النحو. فالعروبة ليست بحاجة إلى الرئيس فرنجية ليدافع عنها". ومشغول بتهدئة الأجواء والأصدقاء والمؤيدين. ما أقرب الناس إلى الانفعال وارتكاب الحماقات في مثل هذه الأجواء، ولذلك لم يتسع له الوقت ليسأل ويستفسر عما حدث.

قررت أن أدبّر حالي بهاتين الكلمتين: عروبة لبنان وانتقاد السياسة الأميركية، مع علمي أنهما لا تكفيان. تعقد مؤتمراً صحافياً في لوزان، في زحمة مؤتمر الحوار الوطني الثاني لتهاجم

واشنطن وتؤكد عروبة لبنان؟ وأعمال المؤتمر؟ وأسباب غضب الرئيس فرنجية؟ ما الذي فجّر غضبه قبل نصف ساعة؟ وهل سيعود إلى حضور الجلسات؟ هل يقبل أن تضمه، بعد الآن، قاعة واحدة مع كميل شمعون وبيار الجميل؟ هذه هي الأسئلة التي تهم الصحافيين، الآن. وليس عندي أجوبة عليها. الحل الوحيد: لن أعقد مؤتمراً صحافياً. سأدلي بتصريح.

أبصرني قبلان بو عزيز يمين نازلاً وحدي إلى الطابق الأرضي، فتبعني. شعرت بحرارة حضوره، وإن أصرّ على البقاء خطوات خلفي ليترك لي مجال التركيز.

كانت الزميلة إليان جبارة مسؤولة عن إعداد ترتيبات المؤتمرات الصحفية. قلت لها إني أريد أن أدلي بتصريح باسم الرئيس سليمان فرنجية، رحّبت وقالت: "دقيقتين، ويجهز كل شيء". وإذا بميشال سماحة يغطّ عليّ. كان رئيس مجلس إدارة تلفزيون لبنان أو المستشار الإعلامي للرئيس الجميل أو الناطق باسمه في لوزان، أو كل هذه المسؤوليات معاً، لم أعد أذكر. حاول أن يأخذني من ذراعي في حديث جانبي. نفرت منه بحركة حادة وقلت له: "شو باك؟ اتركني؟" قال: "خمس دقائق، فقط. خمس دقائق. لا أطلب منك أكثر من خمس دقائق". قلت: "إياك أن تمدّ يدك وتلمسني". قال: "لقد صعدوا كلهم عند فخامة الرئيس

فرنجية..." قـلت: "لا تتدخل معي. لو نويت التأجيل لأمتنعت لأنك تطلبه مني". قال: "خمس دقائق فقط..." وقاطعه قبلان بـو عزيز يمين بصوت واط ونبرة جامدة: "قال لك الأستاذ أن تبتعد عنه. قال لك الأستاذ أن تتركه. اتركه، أحسن لك".

صمت ميشال سماحة وحـيّد من الدرب، واعتليت المنصة وبيد ثابتة قوّمت الميكرو على المستوى اللازم، وقـدمت نفسـي وقلت إني الناطق باسـم الرئيس فرنجية، وإني أدلي بـالتصريح التالي: "يهمني أن أعلن أن الرئيس فرنجية غادر جلسـة المؤتمر، احتجاجاً على مواقف كميل شمعون وبـيار الجميل اللذين يناوران للابتعاد بالمؤتمر عن غايته وهدفه، ويقدمان المشاريع التي تزعم نزع الهوية العربية عن لبنان، في حـين أن هذا الموضوع بـات محسوماً." وتابعت عن عروبة لبنان وانتمائه إلى محيطه الطبيعي، مذكّراً بالعلاقـات التاريخية بـين عائلة الرئيس فرنجية والعرب والعروبة. وانتقلت إلى السياسة الأميركية التي تشـجع على مثل هذه المناورات، وحمّلت واشنطن مسـؤولية الجولات الأخيرة في الحرب الأهلية، وأكّدت أن السياسة الأميركية في لبـنان سياسـة تقسيمية ولا تسعى لمصلحـة لبـنان، بـل تعمل لخدمة المصالح الإسرائيلية.

ارتفعت أصوات المراسلين الأجانب مطالبـين بـالترجمة، فأعدت بالفرنسية ما قلت بالعربية. وارتفعت أصوات المراسـلين الإنكليز والاميركيين، مطالبـين بـأن أصرح بـلغة شكسبـير، فاعتذرت ونزلت وسط احـتجاج العرب والفرنسـيين والإنكليز لأنني رفضت الردّ على أسئلتهم.

عدنا إلى الطابق الثاني، فإذا الممر يغصّ بالناس وباب الشقة مقفل. قال لي الجنرال أنطوان بركات إن نائب الرئيس عبد الحليم خدام حضر عند الرئيس فرنجية وتبعه الرئيسـان صائب سـلام ورشيد كرامي، ولم يلبث أن التحق بهم الرئيس أمين الجميل.

لوزان – الياس الشربين وسيدة زغرتا والرئيس فرنجية

كنّا واقفين في مواجهة باب الشقة حين انفتح بغتة وبضجة، ورأيت الرئيس أمين الجميل يفسح الطريق أمام الرئيس فرنجية ليخرج قبله. ورأيت الرئيس فرنجية يأخذ الرئيس الجميل من يده ويدفعه دفعاً أمامه قائلاً: "أنت رئيس جمهورية لبنان". وخرج رئيس جمهورية لبنان وتبعه الرئيس السابق ثم نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام فالرئيسان صائب سلام ورشيد كرامي.

الياس الشربين[1] مغترب لبناني في أفريقيا وصديق حميم للجنرال أنطوان بركات. دفعته حميته الوطنية إلى الحضور إلى لوزان لعله يستطيع أن يساعد. كان في الممر حين خرج الرئيسان الجميل وفرنجية، وبحركة عفوية توسّط الممر ورفع يده وقال بالصوت الصارخ مخاطباً الرئيس فرنجية: "أستحلفك باسم السيدة العذراء، باسم سيدة زغرتا... باسم كل لبنان... باسم كل المغتربين ألا تفشلوا في هذا المؤتمر. لا يجوز أن تفشلوا. الفشل ممنوع. أستحلفك يا فخامة الرئيس، أن تُطوّل بالك وتوسّع صدرك. من أجل لبنان..."

١ – تبرّع المغترب الياس الشربين بتشييد عدد من المباني السكنية في مختلف المناطق اللبنانية ووهبها لأهالي شهداء الحرب الأهلية. منها بنايتان، كل منهما بعشرين مسكناً، في زغرتا. كما كانت له مساهمات مالية سخية كان يوزعها على كافة الطوائف بواسطة الجنرال بركات .

وردّ الرئيس فرنجية: "خير! خير! روّقوها إنتو كمان. خلّونا نشتغل..." وتابعوا إلى قاعة الاجتماعات.

مداخلة الياس الشربين شحنت الجو بالغضب والعاطفة، فخيّم الصمت في شقة الرئيس.

لم ينزل روبير بيك مع النازلين، والذين بقوا في الشقة ابتعدوا عن بعضهم بعضاً. وبعد أن استأنف المؤتمر جلسته، رأينا الصحافيين يصلون إلى الشقة تباعاً، ساعين وراء ما جرى بين الرئيس فرنجية والوسطاء. وأخذوا يتحلّقون حول روبير بيك وهو يتخلّص منهم بلباقة ويجيب على أسئلتهم الخبيثة بأسئلة أخبث منها.

كان مراسل لوس انجلوس تايمس يتعمّد التذاكي فاقترب. كان حوارهما قد تجاوز الحادث العابر إلى معرفة رأي روبير بيك بالمشاريع الاتحادية التي يطرحها المارونيان الآخران: الفيدرالية... الكونفدرالية. وشرح له روبير بيك بصبر وأناة سبب رفضه المشاريع الاتحادية وتفضيله اللامركزية. قال الصحافي الأميركي: "هل يمكن أن تعطيني مثالاً عن اللامركزية؟" قال روبير بيك: "مثل بسيط: إذا أراد شاب زغرتاوي أو طرابلسي أو عكاري أن يستخرج جواز سفر أو أن يجدده يضطر لأن ينزل إلى بيروت..."

قاطعه المراسل الأميركي: "لكنكم لم تعملوا الحرب من أجل أن يصدروا لكم جوازات السفر في طرابلس؟"

قال روبير بيك: "أولاً، نحن لم نعمل الحرب.

ثانياً: أنت تضيّق مفهوم اللامركزية وتتظاهر بتجاهل المقصود.

ثالثاً: لم يقل لك أحد إننا حاربنا من أجل الحصول على اللامركزية. وهل تريد أمثلة عن التنمية الزراعية مثلاً؟ هل يجب أن ينتظر الشماليون الخطة التنموية من بيروت؟ ومَن برأيك أدرى بالوضع الزراعي وحاجاته في الشمال أو الجنوب أو البقاع، الموظف البيروقراطي الجالس وراء مكتبه في بيروت؟ أم إبن المنطقة؟ وحماية البيئة؟ والمرافق السياحية؟ ومرفأ طرابلس، البيروتي أدرى به من ابن الميناء؟ وإذا احتاجت مدرسة في عكار إلى مدرّس هل من الضروري أن تهتزّ وزارة التربية في بيروت؟

مساء ذلك اليوم، وبعد أن أويتُ إلى فندقي، وهو على بعد خطوات من فندق بوريفاج حيث ينعقد المؤتمر، وجلست أستعرض أحداث النهار، سجّلتُ الملاحظات التالية:

١- اختلف الرئيس فرنجية مع كميل شمعون وبيار الجميل وغادر قاعة المؤتمر واعتكف في شقته. زاره عبد الحليم خدام وصائب سلام ورشيد كرامي ثم الرئيس أمين الجميل. من زارهما

واسترضاهما؟

٢- حليفاه في جبهة الخلاص نبيه بري ووليد جنبلاط لم يكلفا نفسيهما عناء زيارته في شقته. خلاف أجيال؟ أمين الجميل من جيلهما. ماذا يجمعه بهما؟

٣- كان نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام أسرع القادمين إلى شقة الرئيس فرنجية. من يسترضيهما إذا اختلفا؟

٤- ستة من أصل ثمانية يجتمعون في لوزان تزيد أعمارهم عن السبعين، وهم سليمان فرنجية وصائب سلام وكميل شمعون وعادل عسيران ورشيد كرامي وبيار الجميل. هل يمكن أن يمثلوا لبنان الغد؟

٥- ثلاثة كانوا من عمر طوني بيك، الله يرحمه: الرئيس أمين الجميل، ونبيه بري ووليد جنبلاط. هل يمثّلون لبنان الغد خيراً من كبارهم؟

امتدّ مؤتمر الحوار الوطني الثاني وطال. كان متوقعاً أن ينتهي قبل عطلة الاسبوع، وها قد وصلنا إلى يوم الأحد وليس في الجو ما يبشّر بنهاية قريبة. واختلفت التفسيرات، منها إيجابية ومنها سلبية.

اليوم الأحد، أخذ الجميع فرصة إلا الشيخ بيار الجميل. فقد قرّر أن يذهب لحضور القداس. انتشر الخبر بين الصحافيين. وصارت صورة الشيخ بيار الجميل وهو داخل أو خارج من الكنيسة، أو وهو يتناول القربان المقدس، من "الخبطات الصحافية، كما يقول إخواننا المصريون المُمَثّلون في المؤتمر.

التقيت بالوزير الياس سابا وأنا أغادر الفندق. سألتُه إذا كان ذاهباً ليقدس. غشي من الضحك. في طريقي إلى ضفة بحيرة ليمان، شاهدت جمهرة من الزملاء أمام باب كنيسة، في لوزان الكنائس أكثر من الأحياء. سألت أحدهم عمّ يفعل هنا، قال: "ننتظر بيار الجميل. قالوا لنا إنه سيقدس هنا". قلت له: "أستغرب وأستبعد ذلك. فهذه الكنيسة هي في الحقيقة وتوخياً للدقة، معبد بروتستانتي. والموارنة لا يستسيغون التقديس عند البروتستانت."

القداس! دائماً القداس! ثمانية وعشرون قتيلاً في البوسطة

التي تجرأت، على جهل من سائقها وركابها، وضايقت المُقدّسين. بدأت الحربُ بقداس في عين الرمانة، فهل تنتهي بقداس في لوزان؟ لكن زمن المعجزات لا يزال بعيداً.

مال عليّ روبير بيك وهمس: "سألوني إذا كنتَ حقاً الناطق الرسمي باسم الرئيس فرنجية فقلت لهم إنك عضو في الوفد".

جاء من يقول إن جورج سعاده سيحضر إلى جناح الرئيس ليسلم عليه. تعجبت: ما الفائدة من هذه المناورة، اليوم؟ ولمن يريد الرئيس أن يوحي بأنه على استعداد للتصالح مع الكتائب؟ حتى الآن، كانت قوته في رفض طروحاتهم وأسلوبهم في العمل السياسي وإدانة تحالفهم مع إسرائيل الذي لا يزال قائماً. لماذا هذا الاختراق الآن؟ إن إعلان نهاية جبهة الخلاص لا يبرّر التلويح باحتمال العودة إلى الجبهة اللبنانية.

وقبل أن أنتهي من تساؤلاتي، وقبل أن تُتاح لي فرصة تبادلها مع روبير بيك، وصل جورج سعاده يرافقه رامز خازن. كنت واقفاً بالصدفة إلى جانب روبير بيك وبدأ الضيف يصافح الحاضرين جميعاً مسلّماً عليهم بالأسماء.

– كيف حالك طوني بيك؟ قال وهو يصافح روبير بيك، الذي انتفخ

وكاد ينفجر.

وحين جلس إلى طاولة الرئيس، غادر الغرفة ناس وبقي آخرون. كنت أول المغادرين. مناورات التذاكي تضرّ ولا تنفع. ويرفضون أن يتعلموا.

إتصل بي مصطفى الحاج علي، أقرب معاوني عبد الحليم خدام وقال لي باستعجال وعصبية ظاهرة: "التصريح الذي أدلى به الرئيس فرنجية لوكالة سانا، معلناً فيه انفراط جبهة الخلاص، يجب ألا يخرج من شقة الرئيس. يجب ألا يذاع."

تعجبت، لأول مرة يحكي معي بهذه اللهجة. قلت: "يجب أن تعرف أنه ليس من عادة فخامة الرئيس سليمان فرنجية أن يدلي بتصريح ويمنع نشره. يجب أن تعرف ذلك. ألا تعرف ذلك؟" قال: "أرجوك، إعمل جهدك. من فضلك، الأمر في غاية الأهمية..." قلت: "يجب أن تعود وتتصل بي".

روبير بيك على بعد خطوتين. فوجئ وتساءل: "كيف عرفوا؟ يجب أن يكون مندوب سانا خرج من عندنا إلى شقة نائب الرئيس. ويجب أن يكون التصريح قد هزّهم". قلت له: "غسان الرفاعي في منتهى اللياقة، استأذن الرئيس فرنجية أن يُطلع نائب الرئيس خدام على التصريح قبل أن ينشره، فأذن له الرئيس". صَمَتَ لحظة، ثم سألني: "ما رأيك، أنت؟" قلت: "تعطيهم قليلاً من الوقت لعلهم يريدون التشاور مع دمشق!" قال: "قل له: ليس من عادة الرئيس فرنجية أن يصرّح ويمنع نشر تصريحه". كدتُ أسأله إذا كان يراقب مخابراتي التلفونية.

دقيقة، ودق التلفون. مصطفى الحاج علي على الخط يسأل. رددتُ على مسمعه ما قاله لي روبير بيك. قاطعني: "هذا كلامك أنت". قلت: "كلا، هذه المرة، هذا كلام روبير بيك".

لم أكد أقفل الخط مع مصطفى الحاج علي حتى رنّ التلفون من جديد. الست لميا فرنجية الدحداح على الخط من زغرتا تخبر بدهشة أن "صوت لبنان" أذاعت لتوّها أن الرئيس سليمان فرنجية أعلن فرط جبهة الخلاص في لوزان، فأكد لها روبير بيك الخبر، لكنه تساءل من أين وكيف وصل الخبر إلى إذاعة صوت لبنان. وحدّق بي مستغرباً، ثم قال: "ميشال ساسين". قلت: "وجدتها!"

وبالفعل، كان ميشال ساسين، نائب بيروت ونائب رئيس المجلس النيابي في جلسة انتخاب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية، في زيارة الرئيس فرنجية حين دخلنا عليه مندوب وكالة الأنباء السورية سانا غسان الرفاعي وأنا. ودعانا الرئيس فرنجية إلى الجلوس إلى الطاولة المستديرة التي يجلس إليها ميشال ساسين. وبدأ حديثه، وغسان الرفاعي يذهب من دهشة إلى مفاجأة. كان يتوقع كل شيء ما عدا هذه المواقف الصريحة والخطيرة. وقال للرئيس فرنجية، عند انتهاء المقابلة: "أفهم من كلامك، يا فخامة الرئيس، أنك تعلن فرط جبهة الخلاص؟" أجابه الرئيس فرنجية: "لقد أحسنت الفهم". فقال غسان الرفاعي: "أستأذنك، يا

صاحب الفخامة، ألا أذيع هذا النص قبل أن أعرضه على السيد نائب الرئيس عبد الحليم خدام". أجابه الرئيس: "إعمل شغلك، يا ابني. أنتَ جئت تطلب تصريحاً. أرجو ألا أكون قد خيّبت ظنك."

- بالعكس، يا فخامة الرئيس، قلت أكثر بكثير مما كنت أتوقع. شكراً، وإلى اللقاء.

وقبل أن ينهي غسان الرفاعي عبارته ويقف مودعاً، تسلّل ميشال ساسين مسرعاً دون أن يودّع ودون أن ينتظر أن يرافقه أحد إلى باب الصالون... وكان "صوت لبنان" فخوراً وسعيداً بتفجير تلك القنبلة.

كان المؤتمر يعقد اجتماعه، ذلك اليوم، عند الظهر. وعلى غير عادته، وصل الرئيس فرنجية إلى فندق بوريفاج قبل الموعد بساعتين، آتياً من فيلا عصام فارس في مدينة غان. وفور وصوله، قال لي روبير بيك: "جئ لنا بصحافيين أو ثلاثة. الرئيس عنده أشياء يريد أن يعلنها". قلت له: "بعد بكير على الصحافيين".

غادرت الشقة وأنا أفكّر بطلال سلمان أو محمّد شقير (السفير) أو سركيس نعوم وعبد الوهاب بدرخان وبشارة البون (النهار) أو شكري نصرالله (المستقبل) أو أمين السباعي (الحوادث) أو أنطوان نوفل (مونت كارلو) أو رفيق شلالا (الوكالة الوطنية للأنباء) فوقعت على غسان الرفاعي مدير مكتب وكالة

الأنباء السورية – سانا – في باريس. كان واقفاً عند باب المصعد، وكأنه على موعد معي. بادرني بالتحية وقال بلهجته الشامية: "ألا يتكرم علي الرئيس فرنجية بتصريح؟ باالله عليك، إعمل لي واسطة". قلت: "فكرة، إنتظرني، لا تتحرّك من هنا، وأعود إليك بعد خمس دقائق". تركته بالاحتياط، وتابعت التفتيش.

كانت قاعة الإعلام خالية. صعدت إلى الطابق الثاني في مصعد آخر، وقلت لروبير بيك: "ليس في الفندق صحافي واحد. ما عندي إلا غسان الرفاعي. ومندوب سانا، كما تعرف، ليس صحافياً كالآخرين. إنه ملتزم قبل أي شيء آخر". قال روبير بيك: "هات غسان الرفاعي، وقبل أن تُحضره حطّ الرئيس في الصورة".

قبل ان يأتي غسان الرفاعي إلى باريس رئيساً لمكتب سانا اشترك في تأسيس جريدة تشرين. ومجرّد إرساله إلى باريس يعني أنه ليس صحافياً عادياً وبس. وفي باريس، عزّز الثقة به وكان له دور دبلوماسي بالإضافة إلى دوره الإعلامي. قال لي فيما بعد إنه لم يتوقع في حياته أن يكون أداة فرط جبهة سياسية في لبنان تعب الرئيس الأسد في تكوينها.

عندما اصطدم الرئيس فرنجية بكميل شمعون وبيار الجميل، جاء عبد الحليم خدام يؤازره ويسترضيه. مَن سيؤازرنا ويسترضينا اليوم؟ ومَن سيسعى بينهما؟

وصل الرئيس فرنجية إلى الفندق وصعد الى الطابق الثاني. بعد قليل، شاهدت قبلان بو عزيز يمين في غرفة الصحافة، فأقبلت نحوه. قال: "الرئيس في شقته." قلت: "هيا نصعد معاً." قبل أن أسلّم قال الرئيس: "أخبارك؟" قلت: "الاجتماع المتوقع في الثامنة من هذا المساء سيؤخر. لم ينتهوا بعد من وضع الورقة الجديدة."

الرئيس فرنجية: "ومَن يَضع هذه الورقة؟"

– فريق عمل الرئيس أمين الجميل بالتعاون والتنسيق مع فريق عمل نائب الرئيس عبد الحليم خدام.

هزّ برأسه دون أن يعلّق. بعد قليل جاء رسول من الرئيس امين الجميل يعتذر من الرئيس فرنجية عن التأخير ويبلغه أن الجلسة قد تعقد في التاسعة. لم يعلّق الرئيس فرنجية.

الوفد بكامله تقريباً في الشقة وقد حرص الرئيس فرنجية على أن يُجلس الياس الشربين الى جانبه.

قبل التاسعة بقليل، عاد الرسول ذاته يعتذر مرة ثانية من الرئيس فرنجية. لم يتأفف الرئيس فرنجية لكنه قال: "ومتى سنعقد الجلسة؟ ومتى ستنتهي؟ هل من الضروري ان نعقدها اليوم؟"

في العاشرة والربع، دخل الدكتور وديع حداد، مستشار الرئيس أمين الجميل وفي يده كدسة أوراق. مسىّ الرئيس ثم ألقى تحية دائرية. اقترب من الرئيس الذي قال له: "شو هيدا؟" من اللهجة تصوّرتُ أن الرئيس يقصد: "ما هذا الشغل؟" أكثر مما يقصد: "ما هذا الذي في يدك؟" أجاب المستشار: "هذه هي الورقة التي ستقدم لأعضاء المؤتمر لمناقشتها."

الرئيس فرنجية: "تفضّل، هات لنشوف."

ناوله إياها المستشار وديع حداد، وقال: "تريد أن نقرأها معاً، فخامة الرئيس؟

– تفضّل. ووسّع له أحدهم إلى الطاولة المستديرة.

الرئيس فرنجية مستفسراً وقد بدأ يظهر في نبرته شكوك وتبرّم: "وأين صار الآن الذوات؟"

– نزلوا إلى قاعة الجلسات.

– تقصد أنهم ينتظروننا؟

– نعم، فخامة الرئيس.

– وتريد أن نقرأها معاً والذوات بانتظارنا؟

لم يجب المستشار. تابع الرئيس: "وكم يبلغ عدد صفحات هذه الورقة؟"

– أربع عشرة صفحة، فخامة الرئيس.

– قوم، يا ابني، قوم. هذا مش شغل. نناقش ورقة من ١٤ صفحة قبل ان نقرأها ونطلع عليها، وصارت الساعة العاشرة والنصف ليلاً؟ تفضلّوا يا شباب.

ووقف الرئيس فرنجية وسار وتبعه المستشار وعضوا الوفد عبدالله الراسي ورامز الخازن، وواكبناهم جميعاً إلى المصعد.

لم تتأخر تلك الجلسة وخرج الرئيس فرنجية منها إلى فيلا عصام فارس في مدينة غان. لم أرافقهم. وتفرّق الصحافيون وتوزّعوا على فنادقهم يكتبون رسائلهم ويهتفون بها او يفكسونها الى صحفهم واذاعاتهم. فأويت بدوري إلى فندقي.

بكّرت في اليوم التالي بالحضور إلى فندق بوريفاج. وكان غسان الرفاعي أول من وقع نظري عليه. تظاهر بأنه لم يرني فتوجهت إليه وحييته بحرارة المفاجأ بوجوده هنا والان، وأضفت: "ألا تريد ان تجري مقابلة مع الرئيس سليمان فرنجية؟" ضحك ثم قال: "يبدو أن الرئيس فرنجية ما كان مرتاحاً في اجتماع ليل أمس؟" قلت: "معلوماتك صحيحة." قال: "قالوا إنه سأل الرئيس أمين الجميل: "مَن أعد هذه الوثيقة؟ فالتفت الرئيس الجميل بمعاونيه يسألهم بدوره فعجزوا عن ردّ الجواب. عندئذ قال الرئيس فرنجية: "صارت الساعة الحادية عشرة، والورقة لم نقرأها ولا

أحد يعرف من أعدها. خلونا نروح ننام وغداً بيفرجها الله" فوافقوه ورُفعت الجلسة".

قلت: "لا أستبعد ذلك، لكني لا أعرف شيئاً، لم أقابل بعد الرئيس ولا أحد من أعضاء الوفد." قال: "الكلام بسرّك، والله العظيم الرئيس فرنجية أعقلهم واسلمهم منطقاً. قابلتهم كلهم، بين جنيف ولوزان. هو الوحيد الذي كدت أتصوّر انه سويسري يتكلم. شو هالاناقة في التعبير، شو هالمستوى الرفيع في الحديث والمنطق. مع أنه كان يقول كلاماً قاسياً، وينتقد حلفاء له.

لم يكن سهلاً أن يفرط حلفاً أو جبهة سعى الرئيس الأسد ذاته الى إقامته في لبنان. شو هالرواق والأعصاب الجامدة. بعد أن قابلته فهمتُ الاعجاب الذي يكنّه له موظفون كبار في القصر الجمهوري من أقرب المعاونين للرئيس الأسد."

فرحتُ بهذا الحديث، خصوصاً وأن غسان الرفاعي ليس مضطراً، ولن يعود ثانية لمقابلته.

تركت غسان الرفاعي وذهبت أستعير الوثيقة من أحد معاوني الرئيس عادل عسيران، ونسختها وجلست أقرأها. لفتني على الفور أن كل المؤسسات الدستورية لها عنوان تندرج تحته اقتراحات من أجل تعديل صلاحياتها وادخال اصلاحات عليها، كلها من رئاسة المجلس النيابي، إلى المجلس، من رئاسة الحكومة

إلى مجلس الوزراء إلى المجلس الدستوري... باستثناء رئاسة الجمهورية. ليس لها عنوان كبير أو فرعي. تعجبت! تغييب مقصود أو نسيان أو عدم انتباه؟ لم أفهم حتى الآن.

الأمر الثاني الذي لفتني الخفة التي صيغت فيها الوثيقة. ليس فيها وزن للمنطق ولا للحجج المقدمة. نقل صلاحيات من مؤسسة واغداقها على مؤسسة اخرى. ليس فيها تبرير وطني، ليس فيها شرح للمشاركة في الحكم والسلطة، ليس فيها نزعة إلى إشاعة العدل بين العائلات الروحية التي يتألف منها المجتمع اللبناني، ليس فيها أمنية او حلم بالتوصّل إلى وحدة وطنية هي الضمانة لحسن سير المؤسسات.

أقرب ما تكون إلى نصّ صحافي سريع، تأبى صحيفة جدية أن تنشره بشكله الذي وُزع فيه على أعضاء المؤتمر.

عُقدت الجلسة التي يجب أن تناقش الورقة التي لم يُعرف حتى الآن مَن أعدّها. باختصار، أعلن الرئيس فرنجية أنه يرفضها. قال لي الجنرال انطوان بركات إن الرئيس فرنجية أخبره شخصياً انه قال لصائب سلام ورشيد كرامي، بعد قراءة الوثيقة: تعالوا نتبادل. خذوا رئاسة الجمهورية واعطونا رئاسة الحكومة." وبالفعل، كرّر الرئيس فرنجية هذا الاقتراح على عدد من الشخصيات زاروه في لوزان ومن ثم في زغرتا واهدن، حيث

سمعتُه منه شخصياً.

ورُفعت الجلسة. وصعد الرئيس فرنجية إلى شقته. ما إن أبصرني حتى سألني: "بتعرف رقم تلفون عبد الحليم خدام؟"

– نعم، فخامة الرئيس.

– أطلبه

ردَّ مصطفى الحاج علي. قلت: "الرئيس فرنجية يودّ أن يحكي مع السيد النائب." قال: "لحظة."

وناولت السماعة للرئيس فرنجية، ولم أبتعد.

وسمعتُه يقول: "لأ... ما بيصير... لأ يا ابني، ما بيصير هيك... طيّب، أنا بشوف..." وناولني السماعة وشكرني وعاد إلى طاولته المستديرة.

ودخل داخل وقال إن الست لميا اتصلت لتعلمنا أن صوت لبنان تعمل حملة إعلانية للرئيس فرنجية أقوى من حملتها بعد مؤتمر جنيف، تصفه فيها بأنه منقذ الموارنة وتقارنه بالبطاركة الذين صنعوا مجد الطائفة. قال لي الجنرال بركات: "أرى أنك غير مرتاح لهذه الخبرية". قلت: "طبعاً، لستُ مرتاحاً.

بالأمس، عَملوا منه بابراك كرمال[١] وحاجاً وعميلاً سوريا، واليوم يشبهونه بالبطريرك الدويهي وبيوسف بيك كرم. وفي الحالتين يبالغون ويكذبون. هذه ايديولوجية، ولا يمكن التخلّي عنها بسهولة. ولسوء الحظ، أنهم يتصوّرون أن هذا ذكاء. وأنه يُمكن أن يَخدع أحداً. قد ينخدع بعض الساذجين. وبعد أيام، ستسمع أنه عاد عن غيّه ورجع إلى صفوف الوطنيين اللبنانيين.

"أيثمر الشوك عنباً أم العليق تيناً؟ كل شجرة جيدة تحمل ثمراً جيداً"[٢]

١– بابراك كارمال هو زعيم شيوعي أفغاني نصّبته القوات السوفياتية رئيساً لأفغانستان بعد اجتياحها هذا البلد. في حين أن سليمان فرنجية كان – ولا يزال حتى الآن الوحيد في تاريخ لبنان الذي انتخب رئيساً للجمهورية بارادة لبنانية.

٢– متى٧ /١٦و١٧

نويي، أرقى الضواحي الباريسية – بيت عصام فارس والجنرال دي شيزل

غاب الرئيس سليمان فرنجية في جناحه الخاص، ثم عاد إلينا في الصالون الكبير، مرتاحاً منتعشاً، كأنه لم يقضِ الخمس الساعات الماضية على ارتفاع إثنين وثلاثين ألف قدم وبسرعة تسعماية كيلومتر في الساعة. اقتربت منه وقلت: "مبروك، يا فخامة الرئيس! مبروك بطوني الصغير! الله يكبّره ويحميه."

أعتقد أنه ما كان يمكن أن يتفوّه إنسان باسم أو يذكّره بشخص يدخل السرور الى قلبه كتلك العبارة، أو كلفظ ذلك الاسم. مثل السحر، نوّر وجهه، وشكرني وقال: "لم تشاهد صورته، أنت؟" قلت: "لا!"

تقدمت منه، حين رأيته يسحب من جيب سترته صورة طفل لم يبلغ الأربعين يوماً. وأضاءت الصورة وجهه. وضحك وهو يطبع قبلة عليها، ويريني إياها من بعيد. قلت ضاحكاً وأنا لم أر جيداً: "بيشبهك، يا فخامة الرئيس." قال جاداً: "بيشبه جدّه طوني. مخلق منطق. هكذا كان طوني في عمره." ابتسمت وقلت: "يربى بدلالك، يا فخامة الرئيس!" ابتسم وأعاد الصورة الى جيب سترته وجلس.

حدث ذلك في اليوم الأول لوصول الرئيس سليمان فرنجية إلى باريس في زيارة خاصة. مبدئياً، زيارة راحة واستجمام، فيخرج قليلاً من صومعته في زغرتا. وعملياً، لإجراء فحوصات طبية عامة بعيداً عن أنظار الصحافة ورقابتها، وعن قلق المحبين وزياراتهم العزيزة وأسئلتهم التي تنمّ عن اهتمام كبير.

وأيضاً، كي يوجّه رسالة في كل الاتجاهات مفادها أنه لا يزال بهمة الشباب ونشاطه. أيضاً وأيضاً، كي يجسّ نبضَ كبار المسؤولين الفرنسيين ويستكشف موقفهم من المرشحين لخلافة الشيخ أمين الجميل الذي تنتهي ولايته في أيلول ١٩٨٨. كان الرئيس فرنجية يضرب عدة عصافير بزيارة واحدة.

صعدت برفقة لوسيان بيترلان[١] رئيس جمعية التضامن الفرنسي العربي، إلى مطار "لوبورجيه"، مطار الطائرات الخاصة، لنشارك باستقباله. عندما أطل من باب الطائرة قوبل بالتصفيق، ونزل سلم الطائرة بنشاط، وسلّم على الجميع فرداً فرداً. وخصّ لوسيان بيترلان بالتفاتة ودية، وذكّره بأنه استقبله في قصر بعبدا، ثم تمنى عليه أن يشرّفه بزيارة في شقته. أما قبلان حميد

١– لوسيان بيترلان، رئيس جمعية التضامن الفرنسي العربي، أكبر واهم الجمعيات الفرنسية الناشطة في سبيل تعريف البلدان العربية للرأي العام الفرنسي. يصدر شهرية باسم "فرنسا والبلدان العربية"، كاتب مرموق، وهو اول من كتب سيرة حياة الرئيس حافظ الأسد باللغة الفرنسية. وقد زار لبنان بصفة رسمية عام ١٩٧٣، واستقبله الرئيس فرنجية في قصر بعبدا.

فرنجية فقد ضمّه بقوة إلى صدره وقبّله على وجنتيه، واطمأن الى صحته وشغله. فتأثر جميع من في المطار. عدد قليل من المستقبلين عرّج على الشقة في نويي.

بعد ظهر اليوم الثاني لوصوله، غصّ الصالون الواسع بالزوار. فجأة، انتصب في وسط الصالون رجل طويل القامة، عليه هيبة زاد من جاذبيتها بياض شعره وصوته الواطي، وقدّم نفسه وهو يسلّم على الرئيس فرنجية: الجنرال المتقاعد دي شيزيل De Chizel

أعتقد أن الرئيس فرنجية لم يسمع إلا كلمة جنرال. دعاه بمودة واحترام إلى أن يأخذ مكاناً. جلس الجنرال على بعد كرسيين. كنت سمعت عنه وعن جمعيته وعن النشاط الذي يقومان به لجمع الدواء وارساله إلى لبنان، وبنوع خاص إلى المنطقة المسيحية. وضعت الرئيس في الصورة، فانفرجت أساريره وقال: "بارك الله فيه." وأخذ المبادرة والتفت بالجنرال دي شيزيل ورحّب به مجدداً ترحيب المقدر جهوده وقال له: "أنا في خدمتك، ماذا تريد مني؟" لم يصدّق الجنرال، وانطلق يشرح قصته، واختصارها أن الجمعية أمّنت أطناناً من الأدوية تكفي لحمولة شاحنتين. وقد أكدوا له أن الشاحنتين لن تواجها صعوبة إلا لدى وصولهما إلى الحدود والأراضي السورية، ومن الحدود السورية اللبنانية حتى بلوغهما

نقطة الوصول الواقعة في جونية، في كازينو لبنان أو بالقرب منه.

قال أحد الحاضرين: "يعني رايحين للقوات اللبنانية..." قاطعه الرئيس فرنجية بنظرة صارمة، وخاطب الجنرال دي شيزيل: "تريدني أن أتدخل لدى السلطات السورية لضمان عبورها الأراضي السورية ثم منطقة الشمال دون مشاكل؟" قال الجنرال دي شيزيل: "هذا بالضبط ما جئت أطلبه من فخامتكم، إذا كان لا يشكل لكم مضايقة من أي نوع كان." قال الرئيس فرنجية : "لا، أبداً. ولكن يجب أن أعرف مسبقاً الموعد التقريبي لوصول الشاحنتين إلى الحدود السورية التركية وأرقام الشاحنتين، إلى آخر المعطيات التقنية. أعطِ كل المعلومات لجارك واتفقا على طريقة التنسيق، وأنا أعدك بأن تصل الشاحنتان بأمان وسلام إلى جسر المدفون. ومن هناك، دبّر حالك أنت وأصحابك."

سكر الجنرال دي شيزيل من النبل واللطف ووقف وقفة عسكرية وكاد يؤدي التحية، وشدّ على يد الرئيس بقوة وحرارة وعرفان. قال له الرئيس فرنجية: "دع الشكر والعرفان عليّ. أنت تشتغل لتخفيف آلام اللبنانيين. وإذا نزلت لبنان يوماً، إعتبر أن لك صديقاً في زغرتا."

رافقت الجنرال دي شيزيل إلى الباب وتبادلنا أرقام الهاتف وودعته وعدت. كانت الست لميا فرنجية الدحداح تابعت المشهد

من أوله. اقتربت مني وهمست في أذني: "إذا تركت الرئيس دقيقة بقوصك." قلت: "فزّعتني. تعرفين أني لن أتركه أبداً. لكن أنت وهو ستتركانني كثيراً."

بعد مدة، علمت أن جمعية الجنرال دي شيزيل استعاضت عن الشاحنتين بارسال الأدوية في الباخرة الى مرفأ جونيه.

كنت جمعت، مع الأم الرئيسة جوديت هارون[٢]، رئيس البيت الأنطوني في باريس، كمية من الأدوية والكتب لارسالها الى الراهبات الأنطونيات في الخالدية لتوزيعها في زغرتا. وقبلت الجمعية طلبنا بشحن بضاعتنا مع ادويتها، وأعطت الام جوديت هارون أرقام تلفونات وأسماء رئيسات الأديرة القريبة والبعيدة، على أساس أنه يكفي أن تأخذ واحدة منهن علماً حتى يصل كل شيء الى أصحابه. لا أحد اتصل. ولا وصل شيء الى الخالدية. قضاء زغرتا.

١- الأم جوديت هارون هي اليوم الرئيسة العامة للراهبات الأنطونيات

اتصل روبير بيك وقال: "لوسيان بيترلان وأنت مدعوان الى العشاء مع الرئيس فرنجية مساء الغد، اذا كان الوقت يناسب السيد بيترلان." وكان الوقت مناسباً، والعشاء طيباً وراقياً والأحاديث غنية ومتنوعة. كان عنده نائب ووزير سابق ونائب ووزير لاحق والرئيس اللاحق للاتحاد العالمي للغرف التجارية والصناعية.

بعد العشاء، انتقلنا الى الصالون وتوزعنا حلقات. الرئيس فرنجية استأثر بالسيد بيترلان. بطبيعة الحال، لم يهمل ضيوفه الآخرين، لكنّه ركّز على السيد بيترلان. استعادا ذكريات الزيارة التي قام بها لوسيان بيترلان الى لبنان برفقة لويس تيرنوار الوزير الديغولي. وبطبيعة الحال، انتقلا الى السياسة الدولية.

رأيت روبير بيك يتابع باهتمام حديثهما، ثم يقترب مني ويقول: "بيي يفسر لصديقك بيترلان كيف يجب ان يفرق بين اليهودية والصهيونية، بين اليهود والصهاينة". ويؤكد له بقوة أن موقفنا هو "العداء السياسي للصهيونية والصهاينة والمصالحة الدينية مع اليهود واليهودية"، وينبهه الى ضرورة الحذر من الخلط بين الموقفين كي لا نعطي إسرائيل الذريعة لاتهامنا بالعداء للسامية، واستغلال هذا العداء المزعوم ضدنا في علاقاتنا مع الغرب، وبنوع خاص مع الولايات المتحدة."

قرع صليبا الدويهي الباب وفتح له فاتح، ودخل بقامته الطويلة وكتفيه العريضين وصوته. الصالون ملآن. عرفه معظمهم. هيّصوا له. أجال بصره بالجميع ولم يلتفت الى أحد ولا ردّ على أحد. ووقف في وسط الصالون وقال: "أين الختيار؟"

لم أسمع أحداً قبله يقولها. هل طرق سؤاله أذني الرئيس فرنجية؟ أقبل الى الصالون وهو يضحك. لا صليبا سلّم ولا سليمان تأهل. كأنهما يتابعان حديثاً بدأاه منذ سنوات. وواصلا النقار على الأعمار. وأخذ الرئيس مكانه وجلس صليبا الدويهي، وساد جو من الغبطة والحبور.

أكثرية الموجودين متقاربون بالسن وعندهم ذكريات مشتركة. فيهم نواب ووزراء سابقون أو حاليون، وفيهم شخصيات. لم يحكِ أحد مع الرئيس فرنجية، على مسمع مني، كما تكلم معه صليبا الدويهي. الرئيس السابق للجمهورية اللبنانية، والرئيس الدائم لجمهورية الفن؟ ويعترف كل منهما برئاسة الآخر؟

في هذه الأثناء، دخل سفير سابق مشهود له بالعلم والثقافة، بالجد والرصانة، وتربطه "بالرئيسين" علاقات متينة. وأراد ان

يروي نكتة. وفي النكتة "مشهد راقص". ووقف السفير المتجلبب عادة بعباءة الوقار والرزانة، ودون أن يطلب منه أحد، نفّذ خطوات الرقص الضرورية. ورأيت الرئيس فرنجية يضحك ويضحك الجميع. أحببت ان يكون ضحك كي لا يحرج السفير الراقوص. وتساءلت كيف يمكن أن يقاوم "السلطان" الاغراءات التي يتعرض لها من الحاشية.

كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها صليبا الدويهي. حاولت ان أتذكره عندما كان يرسم لوحات مار يوحنا في زغرتا، في النصف الأول من الخمسينات، وكنت بين الأولاد الذين يأتون للفرجة عليه. لم أتذكر شيئاً.

فنان كبير، مبدع بالألوان والأحجام، ومحدث لا يجارى بصوته الجهوري الذي له رنّة خاصة. رنّة نقية صرف، فيها حفيف أغصان الشربين، لم تنفع معها سنوات الاقامة الطويلة في الولايات المتحدة. على كل حال، لم يحاول أحد أن يجاريه. استقطب الحكي والاهتمام. ولم تفارقه الابتسامة. واضح أنهما سعيدان الواحد برؤية الآخر، وأن حوارهما يعبر فوق الجالسين جميعاً، ويذهب في العمق. لأنهما زغرتاويان وصديقان قديمان؟ لأنهما يلتقيان على قيم جمالية واخلاقية وانسانية تتجاوز كل أنواع الحدود.

غادرت مع صليبا الدويهي، ولم أفارقه الا على باب بيته في شامبينيي سورمارن Champigny sur Marne ، إحدى الضواحي في باريس الكبرى، وفي ساعة متأخرة من الليل. وفي تلك السهرة، اكتشفت انه كاتب موهوب متملك باللغة العربية، وله في كتابتها اسلوب ومتانة لو كتب بهما لتميّز وبزّ كثيرين من مدّعي الكتابة فيها.

أعجب كثيراً برواية "خيط رفيع من الدم"، وإن كانت له عليها ملاحظات. وقرّر أن يرسم غلاف الرواية المقبلة. لسوء حظي أنه كان في الولايات المتحدة وطوّل إقامته فيها حين انتهيت من رواية "كي لا تنتهي الحرب"، وكنت مستعجلاً. مثل كل الكتاب الجدد.

في اليوم التالي، هتف لي صليبا الدويهي وتواعدنا عند الرئيس فرنجية وأصرّ على أن نخرج معاً. وقامت بيننا علاقة كانت متانتها تذهب بسرعة، كأننا نريد أن نعوّض الوقت الماضي. وفي ليلة سألني بدهشة: لماذا كانوا يخبئونك عني؟

فاجأتني كلمة: يخبئونك. لماذا عنده هذا الانطباع؟ ومن هم الذين خبأوني عنه؟ ردّيت عليه بضحكة وقلت له إنه يبالغ.

في زيارة اخرى، الى نويي، روى صليبا الدويهي كيف أنه أهدى الرئيس فرنجية لوحة يعتبرها من أهم لوحاته التشكيلية. لم يكن الرئيس فرنجية موجوداً في البيت، وحين شاهدها أمرهم بأن يردوها له. فاكتفى صليبا الدويهي بالقول معلقاً على ذلك: "فلاح بالدم، وسيظلّ فلاحاً." ضحك الرئيس فرنجية. وتابع صليبا: "ذهبت الى القصر في إهدن، وسألتهم أين يجلس الفلاح؟ تعجبوا. قلت: "الرئيس، الرئيس، أين يجلس ليستريح؟" قالوا: "هنا"، وأشاروا إلى الغرفة الزجاجية المطلة على الوادي المقدس. اعتصمت فيها وخرجت بعد ساعة وقلت لهم: "اعطوه هذه، فانها ستعجبه كثيراً".

كان صليبا الدويهي يروي والرئيس يبتسم ويضحك ويوافق على الحديث، وأضاف عندما انتهى صليبا: "بالفعل، لوحة من أجمل اللوحات، وأحتفظ بها في مكتبي."

وفي احدى جلساتي معه، دلّني عليها الرئيس. قلتُ له: "أنا أيضاً، نعتتي صليبا بالفلاح، ولكنه لم يهدني لوحة مثلها." قال: "الدنيا مقامات!"

زغرتا - الاتفاق الثلاثي والرئيس المريض

علا هدير طائرة هليكوبتر فوق القصر، نظر الرئيس فرنجية من النافذة ليتأكد من أنها طائرة صديقة، فكانت طائرة سورية. دقّ الجرس وحضر الرقيب الاول، قال الرئيس: "إليّ بالعباءة.

- بك شيء، فخامة الرئيس؟ سأل العسكري الآدمي والمحب.

- قلت لك ناولني "العباءة" بسرعة.

توارى العسكري الآدمي والمحب، ليعود بالعباءة المطلوبة. وما كاد يستبدل جاكيته حتى دخل اللواء محمد الخولي. رحّب الرئيس بحرارته العادية دون أن يتبادل القبل، "لأنني مريض". وبعد أخذ ورد وسلام وكلام، قال اللواء الزائر: "الرئيس الأسد مشتاق إليك ويأبى أن يوقع الاتفاق الثلاثي[1] إلا في حضورك، إنه في حاجة لبركتك."

- أنا رجل ختيار ومريض، كيف لي أن أذهب في هذه الأيام الصعبة إلى دمشق؟

- ولكن...

---

١ - الاتفاق الثلاثي وقّعه في دمشق، في مكتب نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، زعماء الميليشيات الثلاث: إيلي حبيقة عن القوات اللبنانية، نبيه بري عن حركة أمل، وليد جنبلاط عن الحزب التقدمي الاشتراكي. وحضر التوقيع رهط من السياسيين اللبنانيين، في ٢٨ كانون الأول ١٩٨٥، في دمشق.

- قلت لك إني مريض ما إن تتحسّن صحتي حتى أطلب موعداً من السيد الرئيس... بلّغه تحياتي الحارة.

لم يبق اللواء الخولي على الغداء، كما يفعل عادة.

جرود القبيات – قتلى من أجل رئيس لن ينتخب

يوم الأحد ١٧ تموز ١٩٨٨، قصر الرئيس فرنجية في إهدن

دخلت عليه، كان وحيداً وكان هاشاً باشا. قلت بعد السلام: "تحب إهدن، يا فخامة الرئيس!" ضحك كأنني اكتشفت البارود. كل الناس يعرفون أنه يحب إهدن كثيراً. يفرح لمجرد أن يكون في إهدن. يتفاءل يستبشر بالخير. المصيبة الكبرى التي حلّت به في إهدن لم تغيّر مشاعره تجاه عشّ النسر. غيّرتها تجاه الذين غدروا. ما ذنب إهدن؟ بالعكس، إهدن تحميك، توفّر لك رغد العيش، تؤمّن لك الطمأنينة، تزيدك ثقة بنفسك وحباً بالحياة.

بعد قليل، قال: "قم نجلس في الغرفة الزجاجية." قمنا ورحنا نتحدث عن الوادي وعن دير قزحيا الذي يقع في قعر الوادي، على انخفاض ٣٠٠ او ٥٠٠ متر، خط مستقيم، زاوية قائمة...

كان الرئيس أمين الجميل لا يزال في رئاسة الجمهورية وكانت المهلة الدستورية لاختيار خلف له على وشك أن تبدأ.

ودخل علينا الرقيب الأول. وقال: "فخامة الرئيس، في أثناء الليل، وقع حادث خطير، في جرود القبيات، مع الجعافرة. وقد سقط فيه ثلاثة أو أربعة قتلى وعدد من الجرحى. لم تتوفر لدي

التفاصيل بعد."[١]

شكره الرئيس فرنجية وطلب منه ألا يتأخر عليه بالتفاصيل فور وصولها. وغاب الرقيب الأول.

والتفت إلي وقال: "هذا الحادث له علاقة مباشرة بانتخابات رئاسة الجمهورية."

قلت: "لا نزال بعيدين عن الانتخابات، لم ندخل بعد المهلة الدستورية لانتخاب الرئيس." وبعد تردد سألته: "هل أنت مرشح فخامة الرئيس؟"

تابع وكأنه لم يسمعني: "أتوقع أن تفصل القوات السورية بين المتقاتلين. وقد تقوم بمصالحة عشائرية. لا تنس، القبيات معقل ماروني على الحدود، وفيها نائب له شخصيته وحضوره في الحياة السياسية."

قلت: "الشيخ مخايل الضاهر يتمتع فعلاً باحترام كبير."

بعد جلسة استمرت أكثر من ساعة، عاد الرقيب الأول ليقول للرئيس إن القوات السورية تدخلت في النزاع وفصلت المتقاتلين.

استأذنت من الرئيس وخرجت وفي ذهني كلامه: "الحادث له

١ - ذكرت جريدة "النهار" في عدد يوم الاثنين ١٨ تموز ١٩٨٨، ان الاشتباكات بالهواوين والمدافع اسفرت عن سقوط ٤ قتلى و ١٥ جريحا، وانها لم تتوقف الا بعد تدخل القوات السورية. وأشارت الى وقوع "حادث غامض في محلة الشنبوك الواقعة عند منتصف الطريق بين القبيات ومعقل عشيرة آل جعفر". وأضافت الجريدة ان النائب مخايل الضاهر أجرى اتصالات بالقيادة السورية في شتورا من أجل وقف التعديات على القبيات .

علاقة بانتخابات رئاسة الجمهورية." وبعد أيام، أجرت القوات السورية المصالحة في جرود القبيات.

وانتهت ولاية أمين الجميل إلى فراغ دستوري، لأول مرة منذ عهد الاستقلال. وفي ربع الساعة الأخيرة من ولايته، وقع الرئيس الجميل مراسيم تعيين الحكومة الموقتة برئاسة الجنرال ميشال عون.

الشيخ بشارة الخوري، حين عيّن الجنرال فؤاد شهاب رئيساً لحكومة موقتة، أقدم على ذلك مكرهاً، لأنّ "الثورة البيضاء" أرغمته على تقديم استقالته وهو في منتصف ولايته الثانية ولم يكن عنده حكومة قائمة، بعد ان استقال سامي الصلح، وعجز الرئيس المكلف صائب سلام عن تشكيل حكومة جديدة.

وأرسلت الولايات المتحدة أحد دبلوماسييها روبرت مورفي ليحاول إقناع اللبنانيين والسوريين بالاتفاق على رئيس. لكن، سرعان ما أثبت هذا الدبلوماسي أنه يشكو من نقص في الدبلوماسية. وذهب روبرت مورفي إلى دمشق، وبعد مفاوضات عسيرة عاد إلى بيروت ومعه اقتراح اسم واحد فقط.

كنت في باريس يوم وقف روبرت مورفي في ١٨ أيلول

١٩٨٨، وقال كلمته الشهيرة: "مخايل الضاهر أو الفوضى!"[٢] وفضّلوا الفوضى، وكان معهم حق. لأن الطريقة التي قدم فيها عرضه السيد مورفي، الدبلوماسي المحنّك فرضت عليهم أن يرفضوه، إذا بقيت عندهم بقية باقية من ذكريات شعور بالكرامة الوطنية.

٢- وهذه العبارة، التي ذهبت مثلاً ودخلت تاريخ الحرب اللبنانية، جعلت منها "النهار" العنوان الرئيسي في صدر صفحتها الاولى في ١٩ ايلول ١٩٨٨: "أميركا للجميّل: مخايل ضاهر وإما... الفوضى" وأتبعت هذا العنوان العريض بثلاثة عناوين دونه أهمية وتتعلق به: صفير يستهجن والنواب الموارنة يحاولون الاجماع على مرشح. عون: الجيش يرفض مبدأ التعيين لأن الاختيار للمجلس. الأسد استقبل فرنجية واليوم الحسيني والحص وقيادات أخرى

زمن الخلاص

في نهاية جلسة طويلة، قلت لروبير بيك: "أعتقد أنه حان الوقت كي نكتب سيرة حياة الرئيس فرنجية". قال: "نعم! إقترح عليه الفكرة". قلت: "يجب ان تساعدني عليه". قال: "إبدأ بعرض الفكرة عليه، وسأرى. أعتقد أنه وحده الآن، إصعد وابحث معه".

وانتقلت من مكتب روبير بيك في الثكنة إلى قصر الرئيس، وبالفعل كان وحيداً. ويستمع إلى نشرة الظهيرة من إذاعات ما. ربّت على الكرسي حيث يجب أن أجلس، وتابع الاستماع. وبعد تعليق سريع على الأخبار، فتحت الحديث عن كتابة سيرة حياته واقترحت أن أتولى بداية التحضير لهذا العمل. ودون مقدمات ولا تمهيدات، قال لي الرئيس فرنجية: "لن أعمل شيئاً لأنني أخشى ألا تكون موضوعياً".

نَقزتُ. قلت: "بالتأكيد، لن أكون موضوعياً. سأحاول أن أكون نزيهاً." شعر أني اندقرت. لم يقل شيئاً. قلت: "كنت أنتظر كل شيء إلا الموضوعية. هذا ظلم! خصوصاً وأنك تعرف أنه غلط". بقي معتصماً بالصمت.

كنت أصدرت ثلاثة كتب حتى ذلك التاريخ. وأعرف أنه لم يحب كتابي عن "فرنسوا ميتران والقضايا العربية". قال لي وأنا

أهديه الكتاب إنه لا يثق باليسار ولا باليساريين. وإنه لا يثق بفرنسوا ميتران بالذات. ولم يقرأ الروايتين: "خيط رفيع من الدم". و"كي لا تنتهي الحرب". ولكن المحبين كثر.

ولما لم يقل شيئاً، وقفت وودعته، قال لي وأنا أهم بنزول الدرج: "إرجع غداً". لم تفارقني كلمته طوال ما بقي من النهار والليل، وأنا أستغرب وأتساءل ما الذي حمله على قول ذلك؟ كانت لنا مواقف كثيرة كنت فيها شديد الموضوعية، عارضته فيها بقوة، وكانت معارضتي تثير غضبه.

قررت أن أعود في اليوم التالي وأقول له إنه لا يريد أن أكتب سيرة حياته لأنه يعرف أني سأكون نزيهاً، ولأنه يتمنى لو يكتبها محمد حسنين هيكل. واذا لم يكن يعرف، فيجب أن يعرف أن التهمة الجائرة التي رماني بها سترتدّ عليه. لأن هيكل لن يكتب. وقد لا يكتب أحد غيره. فالذين يتمنى أن يكتبوا لن يفعلوا. والذين كلفهم لن يعرفوا. ولن يبقى الا المتطوّع المظلوم. "واذا كنت أريد أن أكتب فلأنني أرى فيك، يا فخامة الرئيس، رمزاً للمقاومة اللبنانية الصحيحة: مقاومة دكتاتورية الحزب الواحد، رفض التعاون مع إسرائيل، دعم الحق الفلسطيني برغم الممارسات الخاطئة، مصالحة لبنان والمسيحيين مع محيطهم العربي والتحالف مع سوريا. ولأنك تتمتع بصفات إنسانية تشرّف رجل السياسة. أنا لست راغباً بكتابة سيرة حياتك لمجرد أنك زغرتاوي أو لأنك

انتخبت رئيساً للجمهورية، بل لأنك تمثّل نموذجاً من رجال السياسة في طريق الانقراض، مع الأسف. ولكن يجب أن تساعدني. ودون مساعدتك، لا أستطيع أن اعمل شيئاً. على الأقل بالحصول على الوثائق، وبشرح بعض المواقف وتوضيح دوافعك اليها. لأنني أعتبر نفسي، بتواضع، من الباحثين المدققين الذين يسندون كل عمل أو قول أو مأثرة إلى وثائقه ومصادره ومراجعه أو لا يأتون على ذكره."

ورجعت في الغد وأنا مصمم على أن أذكّره بعدد من المواقف، ولكني وجدت عنده النائب السابق أنطون الهراوي. قدّمني إليه بكثير من الاطراء: "جورج من الصحافيين الناجحين... يجب أن تتذكره على التلفزيون..."

– طبعاً، تذكرته... تشرفنا، يا أستاذ.

وتابع الرئيس فرنجية: "عنده عدة كتب، واحد عن سيرة حياة الرئيس فرنسوا ميتران، وعنده كتب أخرى، ما هي الكتب الأخرى؟"

ذكرت عنوانيْ الروايتين. تهيأ لي أن الأستاذ أنطون الهراوي مفاجأ بحماسة الرئيس لتقديمي أكثر من عناوين كتبي. وسألني عن مواضيع الكتابين فأوجزتها له بسرعة فأبدى اهتماماً متزايداً. وأضاف الرئيس: "وهو مقيم في فرنسا، ولكنه حاضر معنا دائماً."

وذهب الحديث عن فرنسوا ميتران والمساكنة مع جاك شيراك وعن الرهائن الفرنسيين. وطبعاً، لم أقل كلمة مما كنت أنوي قوله. وأعترف أنه أخذني الوهم، عندما استأنف الحديث وتصوّرتُ أنه سيضيف: "وسيكتب عني،" أو شيئاً من هذا القبيل. تمنّيت أن يكون غيّر رأيه. ربما بتأثير من روبير بيك، أو بعد أن تذكّر بعض تلك المواقف وانتبه أنه ظلمني حقاً.

وبالفعل، كانت لنا مواقف حرجة ومواجهات صعبة. وأعتقد أنه لم ينس موقفاً واحداً منها.

١- بيت الكهنة - النائب سليمان فرنجية وحركة الشباب الزغرتاوي

على اثر سلسلة من الأحداث الدامية وسقوط عدد من القتلى في النصف الثاني من الستينات، قررنا في "حركة الشباب الزغرتاوي"، أن ندعو نواب زغرتا إلى اجتماع نعقده في بيت الكهنة[١]، نناقشهم فيه أوضاع المدينة. كانوا ثلاثة: الأب سمعان الدويهي ورينه معوض وسليمان فرنجية، حضر منهم إثنان وكان سليمان بيك أول الواصلين. كنت مكلفاً بأن أرحب بالنواب وأن أدير النقاش. واستهلّيت كلمتي قائلاً: "لن أرحب بكم..." لا أزال أذكرها لأنها ذهبت مثلاً، ولا أدّعي أنني أخترعتها. ولأن كثيرين من الرفاق والأصدقاء، حين نلتقي بعد طول غياب، يبادرونني قائلين: "لن نحيّيك..." فنتبادل القبل... وتابعنا على هذا المستوى. أحد الشباب[٢] قال لهما إن التاريخ سيذكر أنه في عهد النواب والوزراء سقط عشرات القتلى في زغرتا...

لم يكن سهلاً أن يأتي سليمان فرنجية إلى "وكر الدبابير". كان

١- بيت الكهنة، تحت كنيسة مار يوحنا، في زغرتا. وكان يعيش فيه خوارنة رعية زغرتا البتوليين حياة مشتركة. وأعتقد ان تلك التجربة كانت الأولى من نوعها. وكان الخوري هكتور الدويهي، العائد حديثاً من روما بشهادة دكتورة، رائد تلك التجربة. وقد استقبل "حركة الشباب الزغرتاوي"، التي كان ملهم تأسيسها ومحرّك نشاطها، في ذلك البيت، منذ قيام الحركة وحتى تاريخ سفره القسري الى المكسيك عام ١٩٦٩. ولا استبعد أن يكون ذلك الإجتماع من أسباب فتح العيون على بيت الكهنة ووضعه تحت المراقبة. الكنيسة، أيضاً، عندها أجهزتها.

٢- أعتقد أنه بطرس سايد فرنجية

يعرف ما ينتظره ولم يتراجع. مَن يقبل أن يخضع "لامتحان شفاهي" أمام مجموعة من الشباب المسيّسين حتى العظم، الذين تذهب انتماءاتهم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار؟ كان يلزمه الكثير من الجرأة والحكمة وسعة الصدر. كانت "جرأته" طبّقت الآفاق. ولم أكن أعلم شيئاً عن حكمته وسعة صدره. مجرّد قبوله أن يجتمع بنا ويجلس إلينا ويستمع دون أن يقاطع أحداً منا وأن يجيب بصوته الناعم الواطي، كانت إنجازاً. لكننا لم نعترف له بشيء.

ووقفتُ بعد ساعتين تقريباً من النقاش الحامي، وأعلنت انتهاء الجلسة. النائب الثاني أسرع بالمغادرة. بينما أقبل علي سليمان فرنجية وأخذني على جنب وقال: "كان اللقاء مفيداً. لماذا لا نُصدر بياناً؟" فاجأني. لم نفكر بالموضوع في "الحركة". والبيان بالتأكيد سيستفيد منه سياسياً. لما لا، طالما أنه يسأل ويتمنى أن نصدره معاً؟ هذا من قواعد اللعبة، وهذا دوره كرجل سياسي.

قلت: "لماذا البيان؟" قال: "تذكر فيه اجتماعنا ومداولاتنا بشؤون زغرتا. أجلس أنت الآن، وبدقائق نكتبه." قلت: "لا بدّ أن أتشاور مع الشباب". قال: "نوقعه باسم شباب زغرتا الجامعي"، إذا اعترضوا".

قلت: "بالتأكيد، لا، إذا كان ثمة بيان سيصدر، فلن يصدر إلا عن حركة الشباب الزغرتاوي. ثم إن الشباب ليسوا كلهم

جامعيين".

نفر مني وغادر دون أن يودّع أحداً.

في اليوم التالي، كنت أقف عند كعب درج المجلس النيابي أنتظر زميلاً. بوصول الرئيس صائب سلام، في سيارته ومعه سليمان فرنجية. ترجّل وأخذ صائب سلام بيده وأقبل به عليّ، وقدّمني إليه: "جورج من خيرة شباب زغرتا."

لو لم أكن موضوعياً كنتَ فعلتَ ذلك، يا فخامة الرئيس؟

٢- بيروت – وزارة الداخلية – ضربوا الطلاب وأهانوهم ودفّعوهم اجرة الطبيب الشرعي

قال لي الزميل ريمون ضو على التلفون: "وزير الداخلية، صاحبك سليمان فرنجية، يدعوننا لزيارته في مكتبه. الهيئة غضبان. ترافقني؟" ركبنا تاكسي ودخلنا فوراً عليه، ففتح النار قبل ان يردّ على تحيتنا. دهش ريمون ضو من عنف الهجوم: "الجريدة" تكتب أي شيء كان، تشغّل أيا كان، تأخذ التقارير المدسوسة، تستقي معلوماتها من المكتب الثاني، إذا كان مسموحاً أن تعمل هيك جريدة "الجريدة"، فهذا غير مقبول من جريدة مثل "الاوريان". "الاوريان"، يا أستاذ ريمون، مؤسسة وطنية عريقة، ولا يجوز أن تفرّطوا بها ولا أن تنزلوا إلى هذا المستوى..."

لم يترك لواحد منا أن يأخذ نفساً. قلت وقد انتفخت: "اذا كنتَ دعوْتنا لتُسمعنا هذه الدُرر فأنا بغنى عنها. أما إذا كنت مستعداً أن تسمع الحقيقة، فسأقولها لك: نعم، أنا كتبت التحقيق في "الجريدة" وترجموه في "الأوريان". نعم، "الجريدة" تستقي أخبارها من كل المصادر، بما فيها المكتب الثاني، وتحقّق في الأخبار وتنشر ما تراه مناسباً. لكن يبدو لي أن معلوماتك غلط، وأن أجهزتك ترفع إليك تقارير مغلوطة. نعم، لقد هاجمتْ أجهزتُك طلاب كلية التربية في الجامعة اللبنانية، واعتدت عليهم بالضرب وانتهكت حرمة

الكلية. واقتحمت بعض مكاتبها وحطمت كل ما وقع تحت أيدي وعصي المهاجمين. لقد ذهبتُ إلى الكلية بنفسي وشاهدت آثار الضرب على الطلاب وآثار التخريب في الكلية. واستجوبت طلاباً وطالبات، فرووا لي ما تعرضوا له. ولدى عودتي إلى "الجريدة" اتصلت بك عند الست لميا فرنجية الدحداح، فقالت لي إنك في طرابلس، واتصلت بك في طرابلس، فقالوا لي إنك تلعب دق طاولة، ولن يزعجوك. فكتبت في الجريدة: أجهزة الأمن في وزارة الداخلية تهاجم الطلاب وتعتدي عليهم بالضرب، بينما وزير الداخلية يلعب "دق طاولة" في طرابلس. هذه هي الحقيقة، ما قالوه لك لا علاقة له بالواقع ولا بالحقيقة. وأنتَ حرّ بأن تُصدّق من تشاء وتستطيع أن تسال الآنسة إلهام الدويهي[1]، بنت صاحبك الشيخ عزيز زخيا الدويهي، فقد كانت بين الذين تعرضوا للضرب والإهانة".

قال: "مع مَن حكيتَ في طرابلس؟" قلت: "لم أعرف الصوت، صوت امرأة، لم تعرّفني بنفسها، ولم تَعرفْني. سألت عنك وعن طوني بيك وعن الست فيرا وعن الست إيريس. لم يكن أحد موجوداً."

١- السيدة إلهام الدويهي الحاج هي اليوم قائمقام البترون، كانت بين الطلاب الذين استجوبتهم في التحقيق الذي كتبته في "الجريدة" عن تلك الحادثة.

قال: "كنت في بيروت" قلت: "لم تقل لي ذلك الست لميا. ولا قالوا لي ذلك في طرابلس. ليس هذا المهم. المهم أن تعرف أن أجهزتَك تكذب عليك وإذا كنتَ تريد أن تُغطيها، فهذه شهامة منك. أما إذا كنتَ تصدِقُها فهذه كارثة! وفي الحالتين، لا يحقّ لك أن تَرميني بهذه الاتهامات. وأنا خلصت، ولن أشترك بالحديث بعد الآن."

في هذه الأثناء، دخل شاب يجب أن يكون في صف "البريفيه" دون أن يدق الباب، ولم يلتفت إلينا وقال: "Papa" بدي خمسين ليرة." ضحك الوزير وقال: "ما في مجال للتفاوض؟ خمس وعشرين، مثلاً؟ ثلاثين؟

Papa ، عجّل، ما معي وقت.

وتابع الوزير الضحك وأخذ من محفظته ورقة الخمسين وقال: "عالقليلة، بوسة" وانتشل الشاب الورقة ومدّ رأسه فطبع الوزير على خدّه قبلة طويلة. بعد مغادرته، التفت إلي سليمان فرنجية ووجهه منوّر وسألني بلهجة حميمة: "عرفته؟"

- كلا؟

- هذا روبير!

داخ ريمون ضو: أين كانوا وأين صاروا. وبهذه السرعة. لا

بدّ أنه فكّر أن أهالي زغرتا يجب أن يكونوا غريبي الأطوار. وسمعته يلفظ كلمة: "غريب!" وفي طريق العودة، قال ريمون ضو: "لم أكن أعرف أنك تحكي معه بهذه اللجهة". قلت: "لأنه يحبني يتحمّلني ويطوّل باله علي".

خصوصاً وأنه يعرف أنني أحاول دائماً أن أكون موضوعياً.

٣- بيروت - شركة التلفزيون اللبنانية - تلة الخياط، ١٩٧١: زيارة وواسطة

أعتقـــد أن جماعة الرئيس فرنجية لم يهضموا توظيفي في التلفزيون دون أن تكون للرئيس فرنجية علاقة أو دخل أو واسطة. "اكتشفني" كميل منسى، بعد أن ألغى الأستاذ غسان تويني الرقابـة على التلفزيون ووظّفني لأنه كان يفتش عن صحافي يكتب نشـرة الأخبـار ويقـدمها. في حـوالي مائة يوم، في وزارتي الاعلام والتربية، أحـدث غســان تويني نقـلات نوعية في الاذاعة وفي التلفزيون وفي التربية. قبل إلغاء الرقابة كانوا يسـمونهم مذيعين، بعد إلغاء الرقابة صرنا نُصرّ على تسميتنا صحـافيين. لأننا فعلاً صحافيون.

رنّ التلفون. قلت: آلو. قال: جورج... قاطعتُه: أهلاً بطوني بيك...

- لا أهلاً ولا سهلاً. بدي إسألك: كنت مبارح في مدريد وشـاهدت رجال البوليس الاسباني يسوقون الناس بالقوة ليذهبوا ويقفوا قـدام قصر فرانكو ويصلّوا ويبتهلوا حتى الله يشفيه؟

- كنت هون عم قدم نشرة الأخبار.

- كيف عرفت انو جابوهم بالقوة ونقلوهم بالبوسطات من القرى؟

- لأني أقرأ الصحف والمجلات الأجنبية، ولأن وكالات الأخبـار العالمية تروي وتخبر ما يجري هنا وهناك.

- وأهم ما وجدته بالأخبار لجؤ البوليس الاسباني الى القوة؟

- هذا هو العنصر الجديد اليوم عن فرانكو.

- كرمال حضرتك، جاءنا احتجاج من السفارة الإسبـانية. بـدي أعرف مين بدو يعمل السياسة الخارجية بهالبلد.

- السياسة الخارجية بالبلد، ما بعرف ومش شغلتي. ولكن نشـرة الأخبار أنا بعملها.

- منشوف.

- شوف على راحتك.

بعد دقـائق، رنّ التلفون، على الخط أنطوان خواجه. وليس بين الاتصالين علاقة. أنا وأنطوان على اتصال دائم. طوني بيك لم يتصل منذ أن انتقلت إلى التلفزيون. كان يتصل بي ويشـرّفني من حين الى آخر بزيارة في "الجريدة".[1] اتفقت مع أنطوان على اللقاء، ورويت له بالحرف ما جرى مع طوني بيك الذي لم ينس أن يقـول لي إنه يتصـل من قصر بعبدا.

كان أنطوان خواجه سـعيداً بانتقـالي من "الجريدة" إلى التلفزيون وزادت سعادته عندما عُينتُ رئيساً للتحـرير، بـعد أن

١- في احدى الزيارات رافقه المحامي ادمون يمين.

غادر كميل منسى المحطة. وقد لمس فائدة ذلك، حـين أجرينا معه مقابلة طويلة عن خططه ومشاريعه لتنمية البورصة. وواظبنا على نشر أخباره.

لم يعلّق على اتصال طوني سوى بكلمة واحدة: "بسـيطة!" لكنني عرفت أنه قـرّر أن يعمل شيئاً ما.

في اليوم التالي، رنّ التلفون: أهلاً، أنطوان!

– تسقينا عندك فنجان قهوة، أنا وطوني بيك؟

– ركوة كاملة!

أخبرت الجنرال سليمان نوفل، رئيس مجلس الإدارة، ومنير طقشي المدير التجاري، فهرعا إلى الباب الخارجي يشتركان معي في استقبال طوني بيك. ودعاه الجنرال إلى أن يشرّفه في مكتبـه ويشرب قهوة معه. قال طوني بيك بابتسـامة عريضة: "أنا جايي أشرب قهوة مع جورج فرشخ."

اهتزّ التلفزيون كله. حتى المخرج الشاب سيمون أسمر علم بالقصة وصار في كل مرة ألتقي بـه يجفّي صوته مقـلداً منصور الرحباني ويقول: واسطة!

ولم تكن تلك آخر مرة أقلّل موضوعية.

٤ – زغرتا – قصر الرئيس فرنجية: لا تحكِ بموضوع "النهار".

غداة "استلامي" الاذاعة، طلبـتُ جريدة النهار، قـالوا إنها ممنوعة من دخول الشمال. استغرقـت وقـتاً كي أفهم أن الرئيس فرنجية أعطى تعليماته لحاجز المردة، عند جسـر المدفون بـمنع دخول أعداد جريدة النهار المرسـلة إلى الشـمال كله وليس إلى زغرتا ومنطقة الزاوية. تعجبت وقررت أن أتحيّن الفرصة وأحدّثه بالموضوع.

آخر ثلاثاء من شهر حـزيران ١٩٨٢، بـدا لي أن الفرصة سانحة ذلك اليوم. كانت ندوته الصحافية ناجحة. أعلن فيها موقفين مهمين: وجّه دعوة إلى البـطريرك خريش ليخرج من سـيطرة الكتائب ويصعد إلى الديمان. وأكّد أنه اتخذ قرار مقاومة اسرائيل، بالاتفاق مع فعاليات الشمال، إذا عبرت قواتها جسر المدفون.

انتهت الندوة وودّع الصحافيين وصعد إلى الطابـق الأول، وصعد معه رامز خازن، وتبعتهما.

– فخامة الرئيس، إسمح لي أن أزعجك بسؤال.

– تفضل.

قلت: أود أن أتمنى على فخامتك أن ترفع الحظر عن جريدة النهار... قال: "النهار تكتب أخباراً كاذبـة وتفتري علي". قـلت: "نرسل لها تكذيباً لكل خبر كاذب، ويوم لا تنشـر التكذيب نمنعها".

وتابعت: "قراء النهار..." قال: "يقرأون أخباري في الصحف الأخرى". قلت: "تعرف أن النهار عندها قراؤها." قاطعني: "لا تَحكِ بهذا الموضوع." قلت: "تتهم بشير الجميل بالتسلّط والاستبداد ونمنع أهم جريدة؟ وطالما هذا المنع ماشي كل نشاطنا الإعلامي..." قاطعني: "قلت لك لا تحك بهذا الموضوع." قلت بانفعال مدروس: "يعني نحن اللي منشتغل مع روبير بيك ليس لنا تأثير وترفض حتى أن تستمع إلينا..." حدّق في ثم قال بعصبية: "يا ابونا، أعطني هالملف حتى نكفي شغلنا." وفهمت. درت على كعبي وخرجت.

لأفتش عن الموضوعية.

يا رب، أطلق عبدك بسلام

كنت في زغرتا لما علمت بنقله الى المستشفى. دخل علي سايد يوسف فرشخ وقال لي: "يا عمي، وضع الرئيس فرنجية صعب". وحين شاع خبر وفاته شعرت كأن قشعريرة أصابت المدينة، بأرضها وأهلها. وقرعت أجراس الكنائس كلها حزناً.

كان الناس مشغولين بأول انتخابات تجري في البلد بعد الحرب الأهلية. وبرغم الاهتمام المحموم بها طغى خبر وفاته على كل ما عداه. شعرتُ أن كل زغرتاوي فقد عزيزاً. وكانت احزاب وشخصيات مسيحية وجهت الدعوة الى مقاطعة تلك الانتخابات والى الاضراب العام يوم السبت ٢٥ تموز ١٩٩٢. وخشي مراقبون من ان تلجأ قوى الأمن الى القوة لمنع تنفيذ الاضراب وارغام اصحاب المحلات على فتح ابوابها. ولما صادف تشييع جثمان الرئيس يوم الاضراب ذاته، أحجمت قوى الأمن عن القيام بأي حركة، لأنه لم يعد بوسعها ان تميّز بين من يقفل اضراباً ومن يقفل حداداً. وأدى الرئيس فرنجية خدمة وطنية. حتى بوفاته.

حارب الزغرتاويون، كغيرهم من اللبنانيين. وتعرضوا لخسارة كارثية بسبب مجزرة إهدن. غير أن الأهداف التي حققوها، بالتضامن والتكافل مع اخوانهم اللبنانيين، من كل

الطوائف والمذاهب، وبدعم أكيد من سوريا، تستحق أكبر التضحيات. أليس هذا ما قصده الرئيس فرنجية وصمّم عليه حين كان يهتف: "فدى لبنان"، أمام جثث طوني وفيرا وجيهان؟

كانت له سلبيات؟ جلّ مَن لا يخطئ. لكن إيجابياته تبقى دائماً، وفي كل الظروف، أكثر بكثير من سلبياته. بفضله، بقوته، بحكمته، بكرامته، بصلابته، بدهائه، بدماثة أخلاقه، تمكنت المدينة الصغيرة من الصمود وساهمت الى حد كبير بتفشيل مشاريع التقسيم والتفتت والدكتاتورية، وصالحت اللبنانيين مع انفسهم ومع محيطهم العربي. بوقوفه وحيداً، بادئ الأمر، بمقاومته العنيدة حمل الناس على الوقوف الى جانبه.

يعرف كثيرون ان المعركة لم تكن دائماً سهلة. ويعرف كثيرون أننا مررنا في ظروف قاسية. كان كل شيء يلعب ضدنا. كانت معنوياتنا احياناً في الارض. المعتدون علينا منتصرون. إعلامهم متجبّر. يتغلبون على الدولة، يصادرون منها السلطة وأدوات السلطة، تنتهي الدولة بأن تتواطأ معهم. تسهل لهم تحقيق رغباتهم كلها، وتوصلهم الى رئاسة الدولة. وكان الشكّ ينتابنا ويتسلّل الى نفوسنا. وننظر حولنا فلا نجد غيره.

في أيام المحنة والشدّة، لم يجد الزغرتاويون غيره يلتفون حوله ويتّحدون على اسمه. كان دائماً هناك، شعلة مضيئة تنير وترشد وتهدي الى الطريق القويم.

"ارادوه لنا قبراً فكان لنا فجراً"[١]، وكان الرئيس فرنجية السبيل الى ذلك الفجر. كان الأمل.

كانت علاقة سليمان فرنجية بالموت طبيعية. لم يكن الموت هاجساً. بعد اغتيال طوني بيك، تطوّرت العلاقة وتعقّدت. صارت الحياة الهاجس. لم تعد حلوة بعد رحيل طوني وفيرا وجيهان. صارت واجباً. وكان رجل المهمات والواجبات.

قبل الاغتيال، تعرّض لحوادث صحية دقيقة وحرجة، كان أخطرها عملية المرارة التي أخضع لها في نيسان ١٩٧٥ في الجامعة الاميركية.

بعد الاغتيال، استقامت صحته. لم يرجع ابن عشرين، لكنه لم يَشكُ من وعكات كبيرة. قبل الاغتيال بأقل من شهر أنذره القلب. اتصلوا بالدكتور يوسف الرهبان، فأسرع وشخّص وعالج وأمر بالراحة و"بريجيم" خفيف وحوّل غرفته في القصر إلى غرفة عناية فائقة، مع جهاز مراقبة القلب (مونيتورنغ أوتلفزيون). واتصل طوني بيك بالجامعة الأميركية فجاءت جمعية أطباء بالهليكوبتر وأثنى أعضاؤها على التشخيص والعلاج والعناية الفائقة.

١ - هذا الشعار هو عنوان ملصق من الملصقات المرهفة الاحساس والذكاء التي كان يصدرها مكتب الاعلام في المردة، في الذكرى السنوية لمجزرة إهدن.

كان في الثامنة والستين عند الاغتيال، وعاش أربع عشرة سنة يمكن القول إنها كانت أكثر من مُرْضية على الصعيد الصحي، ولم تمنعْه من أن يمارس نشاطه السياسي.

في كل مرة كنت أسمع أحداً يسأل الرئيس فرنجية عن صحته، أتذكّر الجنرال ديغول، الذي عاد إلى حكم فرنسا في الثامنة والستين، وانتخب رئيساً للجمهورية في التاسعة والستين.

وفي المؤتمر الصحافي الذي عقده بالمناسبة، سأله الصحافي الشيوعي الشهير رينه أندريو: "كيف صحتك؟" وفهم الجنرال العجوز مغزى السؤال "الملغوم" فأجاب: "جيدة. أشكر اهتمامك. وطَمّن بالك، لا بدّ أن أموت في يوم من الأيام".

بتفسيري: أموت بعد أن أكون قد أنجزت مهمتي وأخرجت فرنسا من الهوة التي أوقعتها فيها الأحزاب. ومنها الحزب الشيوعي. وبعد أن أعيد إليها مكانتها بين الأمم.

كنت أتصوّر الرئيس فرنجية يجيب سائليه، ولم يكونوا جميعاً أصحاب نوايا شيوعية: طمّنوا بالكم، سأموت، ولكن ليس قبل أن أنجز مهمتي.

الأعمار بيد الله. يعتقد فرنسيون أن الجنرال ديغول، لو لم يعد إلى السلطة ويستلم مقدرات فرنسا، كان رحل من زمان. وسليمان فرنجية، لو لم ينتزعه اغتيال طوني بيك من تقاعده، لو لم

يَضع بين يديه مصير عائلته، ولو لم يُلقِ عليه جزءاً من مسؤولية مستقبل لبنان، ما عمّر أربع عشرة سنة زائدة.

هذا الصنف من الرجال المملوئين بالطموح لأوطانهم، المهووسين بالخدمة العامة، المخلوقين للقيادة والزعامة، لا يستطيعون الاكتفاء بالعيش الحيادي الذي لا لون له ولا طعم، مهما كان كريماً ومحاطاً بالاحترام والتشريف. يجب أن يمارسوا دورهم القيادي ليستمر فيهم زخم الحياة.

بعد اغتيال طوني بيك، قرّر سليمان فرنجية ألا يموت. قرّر أن يقاوم الموت، ألا يستسلم للمقادير. لم تعد الحياة حلوة. لكنه انتصر على نفسه، لأنه كان يجب أن يحيا.

دخلتُ عليه في صباح ذكرى ميلاده الثمانين وأنا أجهل ذلك. استقبلني ببشاشة وحبور، وأضاف: "اليوم صاروا ثمانين". قالها بغبطة. وخيّل إليّ أنه يقصد :"خلاص... صارت تكفي".

اغتيال طوني بيك حثّه على الحياة. قالوا للثأر. وأعتقدتُ ذلك، فترة من الزمن، وقلت في اجتماع عام: "قصّروا عمر طوني بيك وطوّلوا عمر سليمان بيك". وحين بدأتُ أتردّد على مجلسه ويخصني بجلسات طويلة ويروي لي أو يجيب على أسئلتي، أدركتُ انه "قرّر" أن "يطوّل" حياته ليحمي حياة هؤلاء وليدافع عن

لبنان من أذى أولئك . قرّر أن يحيا ليسهر على تربية سليمان بيك، ليطمئن إلى زواجه ومستقبله، لتقرّ عينه بطوني الصغير الذي يجب أن يأتي باكراً. واقتنعتُ شخصياً أن هذا الرجل المركّب جَمَعَ عناصر شخصيته الجسدية والعقلية والروحية وأقام بينها عهداً على ضرورة أن تتعايش، بأقصى انسجام ممكن عند رجل في مثل سنه، كي تمدّ في عمره.

والغريب أنها التزمت بالعهد. لا أقول إنه تخلى عن فكرة الثأر. ليس أقسى من كلمته: "أنا متأسف لأنني لست مسؤولاً عن موت بشير الجميل". لم يقل: "عفا الله عما مضى" إلا بعد مرور عقد من الزمن على الجريمة وبعد اغتيال المحرّض عليها. وفي ظرف سياسي معيّن. وبعد عودة طوني إلى البيت.

أقول، خلافاً للاعتقاد السائد، إن الثأر لم يعد في رأس أولوياته.

في زغرتا، رواية أن سليمان "الزغير" وفي عهد الولدنة والشيطنة، أخذ مسدساً معه إلى المدرسة، وأنه سحبه في الصف في وجه أستاذ أو رفيق. أسرع "الشير فرير ديركتور"[1] إلى القصر مستنجداً: "فخامة الرئيس، فرد في المدرسة وسحبه

١ - Cher frère Directeur ، "حضرة الأخ المدير"، اللقب الذي يُنادى به مدير مدرسة الأخوة دي دلاسال"

عالأستاذ!" أجابه الرئيس فرنجية: "شو بتريدني أعمل، ما عندو بي يربيه".

ليس مهماً أن تكون الرواية صحيحة أم لا. ومدلولها أقوى إذا كانت مفبركة. كان عليه أن يحميه قبل أن يربيه. وسمعتُه مرة يقول في سياق حديث عام: "شو هالحكي... لا يربّي إلا الأهل". ولهذه الغاية اعتصم في زغرتا واهدن، واعتكف في قصره، لا يغادره إلا نادراً، وحوّل مكتبه صومعة كي يكون دائماً حاضراً وقريباً. وهذان الحضور والقرب كانا ثقيلين على العائلة وعليه. ولكن كان لا بدّ منهما. كان محوراً رئيسياً من محاور السياسة في لبنان ونقطة جذب واستقطاب. طالما ظل قريباً من العاصمة، من مراكز القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية... تخلّى عن كل شيء وانسحب إلى زغرتا. لو انتقل إلى الغربية كان ازداد بريقه. لكن كان يجب ان يبقى قريباً.

وصل روبير بيك إلى باريس بعد أيام من زواج سليمان بيك. سألته عن الرئيس والعائلة، قال: "لو بتشوف، كلنا نضحك ونمزح، نرقص ونغني، نصفّق ونطبّل، ونحكي وحدنا. البيت كله يهزج بأهله وحجارته وحدائقه. الشجر صار لونها غير شكل".

حين ولد طوني، روى لي روبير بيك أن الرئيس صعد الطوابق ركضاً، ولم ينتظر تشغيل المصعد.

وفي تلك الأيام، جاء وقتها لتلد. وصعدت ماريان إلى الطابق الخامس في مؤسسة إيريس فرنجية. وبعد ساعات، قال الرئيس لزوجته: "قومي نصعد إلى المؤسسة. عندي شعور بأن الولادة ستتم."

كان روبير بيك وأخته الكبيرة لميا قد سبقاهما. والتقى الجميع في الطابق الأرضي في المؤسسة. والتفّ حولهم عدد من المقرّبين الذين أخذوا علماً بدنوّ الساعة. وكان سليمان في الطابق الخامس، وفي الممشى عدد من النسوة. وبرغم الايكوغرافيات التي خضعت لها ماريان، لم يشأ أحد أن يعرف ما في بطنها، ذكراً أم أنثى.

فجأة، انطلقت زغردة من داخل الغرفة. زغردة عالية قوية حادة، اخترقت جدران الغرفة وبابها وسقفها. وردّت عليها زغاريد أقوى وأعلى خارجة من حناجر مخنوقة وصدور مكبوتة. وذهب هديرها في كل الاتجاهات. وتدحرج على أدراج الطوابق الخمسة. ولدى وصوله إلى الطابق الأرضي، شاهد المتحلّقون حول العائلة منظراً أثّر فيهم. رأوا سليمان فرنجية يقترب من زوجته إيريس ويضع يداً على كتفها والأخرى على كتف لميا التي اقتربت منه، ورأوا روبير بيك يقترب في خطوة موقّعة مع خطوة والده ويفرش يديه على كتفي والدته من جهة وأخته من الجهة الأخرى، ورأوهم

يشدّون ليزدادوا التصاقاً ببعضهم بعضاً. ورأوهم يحنون رؤوسهم داخل الحلقة ويجهشون بالبكاء. والزغاريد لا تنقطع، زغاريد الفرح، وزغاريد التحدّي، وزغاريد البشارة. والدموع تنهمر من أعين الجميع من أعين المزغردات والمستمعين والمشاهدين. ولا أحد ينطق بكلمة. هدير الزغاريد يحلّق ويطير في كل الاتجاهات.

لا يذكر أحد كم استغرق هدير الزغاريد. ولم تتوقف إلا حين رفع الرئيس رأسه من قلب حلقة التضامن والحب، وقال وهو يمسح دموعه: "صار فيك تاخدني، يا رب". وهَبّتْ موجة جديدة من الزغاريد، انطلقت هذه المرة من الطابق الأرضي صاعدة الأدراج إلى الطابق الخامس واخترقت السقوف والجدران وحلقت في كل الاتجاهات. وصعد الرئيس فرنجية ركضاً إلى الطابق الخامس.

"الحق، الحق أقول لكم... ستحزنون لكن حزنكم يصير فرحاً"[٣]

زعم ناس أنهم سمعوا الزغاريد من إهدن. ومن بشري، من طرابلس ومن الضنية، من الكورة، من بلاد البترون، من بلاد جبيل، من كسروان، ومن بيروت بشقيها.

لكن الزغرتاويين لم يصدّقوا هذه المزاعم والأوهام. قالوا إن وسائل الاتصال الحديثة نقلت الخبر إلى كل أنحاء لبنان والى سائر

١- يوحنا ١٦/ ٢٠

بقاع الأرض. وإن ناساً أصيبوا بصدمة وآخرين بالصداع وثالثين بالصمم. أما الأكثرية الساحقة فقد فرحت بالنبأ السار وأسرعت تهنئ السليمانين بعودة طوني.

جاء طوني ببراءة الذمة... بورقة إخلاء السبيل. ولم يعد الرئيس مستعجلاً على شيء. لا على الذهاب ولا على البقاء. لم يستسلم، ليس من عادته أن يستسلم. لا يعرف كيف يكون الاستسلام. لم يعد يقاوم. واعتبر أن كل يوم زائد هو يوم سعادة مع طوني.وعادت علاقته إلى طبيعتها مع الموت، مع الحياة. لم يعد أي منهما هاجساً. واستعاد الصفاء. وكنت أحرص على زيارته في كل مرة أعود من باريس. وكنت أسأله عن طوني فيضيء وجهه. وفي مرة سألته إذا كان لا يزال يشبه جدّه طوني، فقال لي: "بالعكس، الشبه يزداد. هو ذاته، عندما كان طوني في عمره. مخلق، منطق". لم أعرف أنه قال: "صار فيك تاخدني، يا رب" إلا مؤخراً، فكنت أتصوّره يردّد مع سمعان الشيخ الذي أوحى إليه الروح القدس أنه لا يذوق الموت قبل أن يرى المخلص، ويهتف قائلاً: "يا رب أطلق عبدك بسلام... فقد رأت عيناي الخلاص!" [٤]

زغرتا – باريس

تموز ٢٠٠٢

١- انجيل لوقا: ٢ -٢٥

صدر للمؤلف

فرنسوا ميتران والقضايا العربية	المكتب العربي	١٩٨١
خيط رفيع من الدم	المؤسسة العربية للدراسات والنشر	١٩٨٧
كي لا تنتهي الحرب	المؤسسة العربية للدراسات والنشر	١٩٨٨
فوق أكياس الرمل	المؤسسة العربية للدراسات والنشر	١٩٩١
الدكان	دار النهار	١٩٩٣
حميد فرنجية	المؤسسة العربية للدراسات والنشر	١٩٩٧

بالفرنسية

Le Requin borgne, recueil collectif de nouvelles, Hatier, Paris

خيط رفيع من الدم ترجمت الى الفرنسية باسم

Oum Farès, une mère dans la tourmente libanaise, Publisud 1995 Paris.

وله أيضاً

سعيد فريحة ومجلة الصياد	فيلم وثائقي للتلفزيون مدته ساعة
خيمة فؤاد شهاب وجمال عبد الناصر	فيلم وثائقي للتلفزيون مدته ساعة

هذه شهادة وليست بحثاً ولا سيرة. السيرة والبحث تلزمهما أدوات ووثائق ومراجع ليست متوفرة لديّ. طبيعة الشهادة أنها شخصية، فيها ذكريات وخواطر ووقائع عن علاقة كانت دائماً مصانة بالحب والاحترام والأمانة، حتى في أوقات التوتر. كانت لي ساعات شعرت وأشعرني فيها أني من أقرب الناس إليه. لا أذكر ولا لحظة انه أشعرني بشيء من اللامبالاة أو الشكّ. على كل حال، احترام الآخر، أيّا كان، ميزة جوهريَة من مزاياه الكثيرة. كان يشعرني بعدم رضاه عن تصرّف أو موقف أو كتابة...

وهذه الشهادة هي جملة مشاهد، حضرتُ بعضها وتحققت من البعض الآخر لدى أصحاب العلاقة مباشرة. وسأقصرُ هذه المشاهد على حياته الأخيرة، مع اختراقات سريعة للمراحل الماضية، عندما يساعد ذلك على فهم حدث أو تفسير موقف.

وقد حرصتُ على عدم ذكر مشاهد ومواقف ليس عليها شهود أحياء. مثلاً، حمّلني الرئيس فرنجية رسالة سياسية الى العميد ريمون اده في باريس، قبل حلول المهلة الدستورية لانتخاب رئيس للجمهورية في عام ١٩٨٨، وقد بلّغت. وأحتفظُ بالرسالة وبالجواب الشفهيين، على أمل أن يأتي زمان تتوفر فيه امكانية تأكيدهما بوثائق أو شهود.



بيسان